Franz Kafka

قصص وخواطر

Telegram:@mbooks90

فرانس كافكا ترجمة: محمد أبو رحمة

بيت الياسمين

بيت الياسمين
للنشر والتوزيع

الإشراف العام:

زياد إبراهيم

المراسلات:
الدور الثانى شقَة 3
71 ب حدائق الأهرام- البوابة الأولى
ميدان الرماية - الجيزة

Email:
baitelyasmin@gmail.com

TEl:
whatsapp: 00201110094625
00201003456046
Mobile : 00201016685583

اسم الكتاب:
كافكا قصص وخواطر
المؤلف: كافكا
الترجمة: محمد أبو رحمة
الناشر : بيت الياسمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:
2023/28498
الترقيم الدولى:
9789778172782
التدقيق اللغوي: نهى عبد الستار

حقوق الطبع محفوظة.

الطبعة الأولى لـ بيت الياسمين 2024.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتجزئته في نطاق استعادة المعلومات، أونقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق.

هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن توجهات الدار ولكنها رؤية الكاتب.

خواطر

أطفالٌ على الطريق الزراعي

كنت أسمع صوت العربات المارة بسور الحديقة وأحيانًا كنت أراها من خلال ثغرات صنعتها حركة ضعيفة بين أوراق الشجر.

Telegram:@mbooks90

وكم كان خشب عجلات وعريش هذه العربات يطقطق في هذا الصيف الحار.

جاء عمال من الحقول يتهكمون بأن هذا كان بمثابة العار. كنت جالسًا حينئذٍ على أرجوحتنا الصغيرة لأستريح بين الأشجار بحديقة والديّ.

ظلّ الحال على هذا المنوال أمام السور. وفي هذه اللحظة كان الأطفال يهرولون وعربات تحمل حبوبًا ورجالًا ونساءً فوق الحفر كما أخذ الظلام يحل على أحواض زهور حولنا.

في المساء رأيتُ رجلًا نبيلًا يتنزه على مهل متكئًا على عصا، بينما فتاتان تتأبط كل منهما ذراع الأخرى، تتجهان صوبه تلقيان عليه التحية وينعطفان إلى الطريق الجانبي.

ثم طارت الطيور كأنها تتطاير، فتابعتها بنظري ورأيت كيف صعدت في لحظة، حتى لم أعد أصدق أنها ترتفع، بل إني كنت أنا الذي يهوى وبدأت في التأرجح قليلًا ممسكًا بالحبال بسبب وهني. وسرعان ما كنت أتأرجح بقوة عندما هبّ هواء أكثر برودة وبدلًا من الطيور الحائمة ظهرت نجوم مرتجفة. وتناولت عشائي على ضوء الشموع، وكثيرًا ما كنت أفرد ذراعيّ على قرص الطاولة الخشبي، فقد كنت متعبًا وأنا أقضم فطيرة الزبد.

كانت الستائر كثيرة الثقوب تنتفخ بالريح الدافئة، وأحيانًا ما كان يمسكها بقوةٍ شخصٌ ما، يمر بالخارج إن شاء رؤيتي بشكل أفضل والتحدث معي. وفي معظم الأحيان كانت الشمعة سرعان ما تنطفئ ليحوم بعوض تجمع منجذبًا إلى دخان الشمعة المظلمة لبعض الوقت، فإذا سألني أحدهم من خلال النافذة نظرت إليه كما لو كنت أنظر إلى الجبال أو في الهواء فلم أكن أهتم كثيرًا بالإجابة، وإذا قفز شخص ما فوق حاجز النافذة ليخبرني بوصول آخرين بالفعل أمام المنزل كنت أهب واقفًا

متنهدًا.

«لا، لماذا تتنهد هكذا؟ ماذا حدث؟ هل هي محنة كبيرة لا يمكن اجتيازها؟ ألن نكون قادرين على التعافي من هذا؟ هل ضاع كل شيء حقًا؟».

لم يكن هناك شيء ضاع.

ركضنا أمام المنزل.

«حمدًا لله، ها أنتم أخيرًا».

«دائمًا ما تصل بعد فوات الأوان».

لماذا أنا؟.

أنت تحديدًا، فلتظل بالمنزل إن كنت لا تريد صحبتنا، ماذا؟

لا رجعة؟.

«لا رجعة، ماذا تقول؟ يا إلهى، فليمر هذا المساء على خير».

لم يكن هناك نهار أو ليل، سرعان ما احتكت أزرار السترة ببعضها البعض مثل اصطكاك الأسنان، وسرعان ما جرينا محافظين على مسافات ثابتة، بأنفاس حارقة، مثل حيوانات بمناطق استوائية. مدرعين كجنود الحروب القديمة، ضربنا الأرض بأقدامنا وقفزنا في الهواء، يقود بعضنا البعض في الزقاق الصغير وعلى نفس وتيرة القفز أخذنا نركض على طول الطريق الزراعي. فرادى ولجوا إلى الحفر وما أن اختفوا قبل المنحدر المظلم حتى كانوا يقفون مثل أغراب أعلى الطريق الزراعى ناظرين إلى أسفل قائلين: «انزلوا»

«اصعدوا أنتم أولًا».

«حتى تلقوا بنا من علٍ، لن يخطر هذا ببالنا، فنحن ما زلنا أذكياء».

«أنتم جبناء جدًا، هذا ما قصدتم قوله. فتعالوا، تعالوا»

«حقا؟ أنتم؟ تحديدًا أنتم سوف ترموننا؟ فسوف ترون من أنتم؟»

قمنا بالهجوم، فقوبلنا بردٍ عنيفٍ، فاستلقينا على عشب الخندق، وسقطنا طواعية. كانت حرارة كل شيء متساوية، فلم نشعر بدفء أو برودة العشب، فقد كنا مجهدين فقط.

فإذا ما رقد أحدنا على جانبه الأيمن ووضع يده تحت أذنه، يكون قد شاء أن يغفو. ورغم أن المرء أراد أن يتماسك مجددًا برأس مرفوعة، إلا أنه يكون قد هوى بذلك في حفرة أعمق.

فإن شاء أن يرفع ذراعه وطوح ساقيه، ليلقي بنفسه في الهواء، فسوف يسقط يقينًا في حفرة أكثر عمقًا.

ولا يكتفي المرء بهذا. فكيف سيتمدد خاصةً بركبتيه، بوضع صحيح كي ينام حقًا في حفرة أخيرةٍ، فلم يفكر في هذا الأمر ليستلقي على ظهره كمريض ينزع إلى البكاء. كنا نرجف إذا قفز صبي من المنحدر إلى الشارع وهو يدوس بنعل حذاء قاتم فوقنا واضعًا مرفقيه في خصره.

كان من الممكن بالفعل رؤية القمر من على ارتفاع ما، فقد رأينا عربة بريد تمر في ضوئه. هبت ريح ضعيفة لتعم المكان، حتى إننا شعرنا بها في الخندق، لنسمع حفيف أشجار الغابة القريبة.

لم يعد أحد يهتم كثيرًا بالوحدة.

«أين أنتم؟»

«تعالوا».

«جميعكم»

«أتختبئ، دعك من هذا الهراء».

«ألم تعلموا بأن عربة البريد قد مرت ؟»

«لا، هل مرت؟»

«بالطبع، بينما كنت نائمًا، مرت بالعربة».

«كنت نائمًا؟ لا يوجد شيء من هذا القبيل»

«فقط ابق هادئًا، يمكنك رؤيته»

«لكن من فضلك، تعال»

اقتربنا من بعضنا البعض، تصافح البعض، لم نستطع رفع رؤوسنا بما يكفي لأن الطريق كان منحدرًا. وصرخ أحدهم صرخة كما يصرخ الهنود الحمر في الحروب، وإذا بسيقاننا ترمح كما لم يحدث من قبل، بينما كانت الريح تدفع خصورنا أثناء ما كنا نقفز. لم يكن هناك ما يوقفنا، كنا نعدو كما لم يحدث من قبل حتى نتوقف عاقدي الذراعين لننظر بهدوء حولنا.

توقفنا عند جسر فيلدباخ، ومن واصلوا العدو عادوا أدراجهم. كانت المياه تحتنا تلاطم الصخور والجذور كأن الوقت لم يكن متأخرًا في المساء.

لم يكن هناك سبب يمنعنا من القفز على سور الجسر. انطلق قطار خلف الأدغال على مسافة بعيدة، كانت جميع العربات مضاءة، وكانت النوافذ الزجاجية مغلقة. بدأ أحدنا في ترديد أغنية شعبية، وكنا جميعًا أردنا الغناء. كنا نغني أسرع بكثير من القطار، وأرجحنا أذرعنا لأن الصوت لم يكن كافيًا، وانتشرت أصواتنا في حشد أحسسنا فيه بالراحة.

فإذا خالط صوتك صوت الآخرين كنت كمن اصطاده شخص صيدًا. هكذا غنينا، الغابة خلفنا، المسافر البعيد في مسامعنا. الكبار بالقرية استيقظوا، وأخذت الأمهات ترتب الأسرّة.

كان الوقت قد حان، قبلّتُ الشخص الذي كان يقف إلى جانبي، وصافحت فقط الثلاثة التاليين له، وبدأت في العودة ولم ينادني أحد.

عند أول مفترق طرق حيث لم يعد بإمكانهم رؤيتي، استدرت وسرت عائدًا إلى

الغابة على الطريق الزراعي. كنت أقصد المدينة في الجنوب التي قيل عنها في قريتنا: «هناك أناس لا ينامون، تخيلوا».

«ولم لا؟»

«لأنهم لا يتعبون».

«ولماذا؟»

«لأنهم حمقى».

«ألا يتعب الحمقى؟»

«وأنّى للحمقى أن يتعبوا»

***

كشف صائد الفلاحين

أخيرًا، حوالي الساعة العاشرة مساءً، وصلت أمام منزل فخم، حيث دُعيت إلى حفل مع رجل عرفته من قبل على نحوٍ عابر، وكان قد انضم إليّ مرةً أخرى على غير توقع ليقودني لساعتين خلال الأزقة.

«إذن هكذا قلت وأنا أصفق بيدي إشارةً إلى ضرورة رحيلي، ثم قمت ببعض المحاولات أقل إصرارًا، فقد كنت بالفعل متعبًا للغاية».

سألني: «هل ستصعد إلى هناك في الحال؟».

سمعت من فمه ضجيجًا كاصطكاك الأسنان.

«نعم، فلقد كنت مدعوًا، وهذا ما كنت أخبرته به على الفور، لكنني دُعيت للصعود».

إلى المكان الذي كنت أتمنى أن أكون فيه وليس إلى الوقوف هنا أمام بوابة لألقي نظرة عابرة على آذان رفيقي، ثم ساد الصمت بيننا كأننا قررنا البقاء في هذا المكان لفترة طويلة. فيما شاركتنا هذا الصمت، البيوت من حولنا وامتد الظلام إلى النجوم فوقها، وخطوات عابرين لا نراهم، لا يهتم المرء بتخمين مساراتهم، ورياح كانت تضغط مرارًا على الجانب الآخر من الشارع، وجرامافون يصدح عبر نوافذ مغلقة في غرفة ما - كان هذا ما يمكن سماعه متخللًا هذا الصمت كأنه ملكه دائمًا وإلى الأبد. واستسلم رفيقي لذلك باسمه واسمى كذلك - بعد ابتسامة مني له - ليمد ذراعه اليمنى إلى أعلى الحائط ويستند بوجهه عليه مغلقًا عينيه، لكنني لم أستطع رؤية هذه الابتسامة إلى نهايتها، لأن الخزي جعلني أستدير فجأة، فمن خلال هذه الابتسامة فقط أدركت أن رفيقي هذا لم يكن سوى صائد فلاحين، ليس أكثر.

كنت قد قضيت في هذه المدينة شهورًا معتقدًا أنني أعرف صائدي الفلاحين هؤلاء جيدًا، وكيف كانوا يفردون أذرعتهم من الشوارع الجانبية في الليل كنادل يستقبل رواد الحانة، وكيف كانوا يتحسسون أعمدة الإعلانات التي نقف حيالها، كمن يلعب لعبة الغميضة ليتجسسوا من وراء الأعمدة بعين واحدة على الأقل، فلما يعترينا

الخوف كانوا يظهرون عند مفترق الطرق فجأةً، وهم يحومون حولنا على حافة الرصيف الذي نسير عليه.

لقد فهمتهم جيدًا، فقد كانوا أول معارفي بالحانات الصغيرة في المدينة، وأنا مدين لهم بأول ملمح عن عناد لم أكن أستطيع تصوره لولا أني شعرت به بداخلي.

كيف كانوا يصمدون في مواجهتك، حتى لو كنت أفلت منهم من زمن بعيد، أي حين لم يعد هناك من يصطادونه لفترة طويلة.

كيف لم يجلسوا، وكيف لم يسقطوا، بل كانوا ينظرون إلى فريستهم بنظرات كانت لا تزال مقنعة، حتى ولو من مسافة بعيدة، وكانت وسائلهم هي نفسها دائمًا.. كانوا يقفون أمامنا بأكبر قدر يمكّنهم من اعتراض طريقنا، محاولين الحيلولة بيننا وبين المكان الذي كنا نقصده؛ عارضين علينا أحضانهم سكنًا بديلًا، فإن تولد الشعور الجماعي فينا أخيرًا، اعتبروه حضنًا ألقوا فيه بأنفسهم.

ولم أتعرف على هذا المزاح القديم إلا بعد قضاء وقت طويل معهم، ففركت أطراف أصابعي معًا للحيلولة دون وقوع فضيحة.

لكن رفيقي كان ما زال على وضعه السابق معتقدًا أنه ما زال صيادًا للفلاحين، وكان رضاؤه بمصيره قد جعل خده الآخر المواجه لي يتورد.

قلت له: «كشفتك»، وربتُّ على كتفه برفق، ثم أسرعت أصعد الدرج لأسعد بغرفة الانتظار في الطابق العلوي بوجوه الخدم الوفية للغاية دون مبرر، وقد كان ذلك بمثابة مفاجأة جميلة.. نظرت إليهم جميعًا واحدًا تلو الآخر بينما كانوا يخلعون معطفي وينفضون الغبار عن حذائي.

تنفست الصعداء لأدخل القاعة بهامة مرفوعة.

***

نزهة مفاجئة

عندما يكون المرء قد قرر أخيرًا البقاء في المنزل في المساء، فارتدى ثوبه المنزلي وجلس إلى الطاولة المضاءة بعد العشاء عاقدًا العزم على إنجاز هذا العمل أو ذاك اللهو، ليذهب بعدها للنوم كالمعتاد إذا ما كان الجو بالخارج سيئًا، مما يجعل البقاء في المنزل أمرًا طبيعيًا.

فإن بقي المرء بلا حراك جالسًا إلى الطاولة لفترة طويلة، فإن المغادرة قد تثير الدهشة عامةً إن كان الدرج مظلمًا وباب البيت مغلقًا، فإن وقف المرء فجأةً رغم كل هذا في وضع غير مريح، وقد غير ثيابه، وظهر على الفور مرتديًا ملابس الخروج، معلنًا اضطراره للمغادرة وبعد وداع سريع، وحسب السرعة التي يغلق بها الباب يظن أنه سبّبَ نفورًا على نحو أو آخر.

فإذا ما صار المرء في الزقاق، شعر بأعضاء جسده وقد استجابت بمرونة لهذه الحرية غير المتوقعة التي كان هو من وفرها لنفسه.. إذا شعر المرء أنه من خلال هذا القرار قد جمع في نفسه كل قدرة على الحسم، إذا أدرك المرء بأهمية أكبر من المعتاد أن لديه قوة أعظم مما يحتاج إليها بسهولة لإحداث وتحقيق أسرع تغيير يمكن تحمله، وإذا سار المرء في أزقة طويلة مثل هذه فإنه يكون في هذا المساء قد ابتعد تمامًا عن عائلته التي تتأرجح في الوهم، بينما يكون هو وبصلابة شديدة قد انتزع نفسه من الأطر المحددة وهو يقفز فرحًا ليرتقي إلى هيئته الحقيقية.. ويزداد الأمر كله حدة عندما يزور صديقًا في هذه الساعة المتأخرة من المساء ليتعرف على أحواله.

***

قرارات

أن تترفع على حالة بؤس فلابد أن تكون سلسلًا بقوة إرادتك. أنتزعُ نفسي من الكرسي، وأدور حول الطاولة محركًا رأسي و عنقي، أشعل لهيبًا في عينيّ وأ شد الخلجات من حولهما.

أقاوم كل شعور، ألقي تحية حارة على (أ)، فإن جاء الآن، فسوف أتحمل وجود «ب» بغرفتي.

وعند (ج) أطوي داخلي كل ما يقال، رغم الألم والجهد، بنفس عميق.

لكن حتى لو سارت الأمور على هذا النحو، فإنه مع كل خطأ لا يمكن تجنبه، سوف يتعطل الكل، السهل والصعب، وسأضطر إلى العودة لأدور في الدائرة نفسها.

لذلك، تبقى أفضل نصيحة هي أن تتقبل كل شيء، وأن تتصرف ككتلة كثيفة وأن تشعر بأنك هباء منثور، ولا تتجاهل أي خطوة غير ضرورية، وأن تنظر إلى الآخر بعين حيوان، ولا تشعر بأي ندم.

بإيجاز، عليك أن تقهر ما تبقى من الحياة كشبح، أي أن تكتف آخر سكينة لديك، كسكينة قبر فلا تسمح بتواجد غيرها.

والحركة المميزة لمثل هذه الحالة هي أن تمر بإصبع البنصر فوق الحاجبين.

***

رحلة إلى الجبال

«لا أدري» هكذا هتفت بلا صوت، «ألا يأتي أحد فلا يهم ألا يأتي أحد. إني لم ألحق أي أذى بأي شخص ولم يؤذني أحد، لكن لا أحد يريد مساعدتي. لا أحد على الإطلاق، لكن الأمر ليس هكذا بالفعل.

إلا أنه لا أحد يساعدني - وإلا فلن يكون هناك أحد جميل. كم أود - ولِمَ لا - الخروج في رحلة جماعية مع لا أحد.

بالطبع رحلة إلى الجبال، أهناك بديل؟ حيث يتزاحم اللاأحد مع بعضه البعض، هذه الأذرع العديدة المتشابكة، هذه الأقدام الكثيرة التي يفصلها عن بعضها خطى قصيرة.

وغني عن القول إن الجميع يرتدون الفراك. نسير على هوانا، تهب الرياح عبر ثغرات نتركها نحن وأطرافنا مفتوحة. تتحرر الرقاب في الجبال.. إنه من العجب أن لا نصدح بالغناء.

***

محنة أعزب

يبدو الحال سيئًا للغاية أن تظل أعزب، كرجل عجوز تمنعه كرامته من طلب الانضمام لجماعة إن شاء قضاء أمسية مع الناس، أن تكون مريضًا فتنظر إلى الغرفة الخالية من ركن بالسرير لأسابيع، لتقول دائمًا وداعًا عند الباب الخارجى، ألا تصعد أبدًا الدرج بصحبة زوجتك، وليس في غرفتك سوى أبواب جانبية تفضي إلى شقق غريبة، أن تحمل عشاءك بيدك إلى البيت.

أن يكون عليك أن تدهش لأطفال غرباء ولا يسمح لك بالاستمرار في تكرار

«ليس لدي...»، لتدريب نفسك على مظهر وسلوك واحد أو اثنين من العزاب من ذكريات شبابك. سيكون الأمر كذلك، فقط في الواقع.. اليوم وبعد ذلك ستقف هناك بنفسك، بجسد ورأس حقيقي، بما في ذلك جبهتك لتصفع يدك.

***

التاجر

قد يشعر البعض نحوي بالأسى، لكني لا أشعر بأيّ من ذلك. فمحلي الصغير يملؤني بمخاوف تؤلم جبهتي وفوديّي، تحجب عني بوادر رضا، لأن محلي صغير.

يتعين عليّ لساعات مقدمًا اتخاذ قرارات لإبقاء ذاكرة الخادم نشطة، والتحذير من أخطاء مخيفة، وحساب الموضات التالية في الموسم، ليس التي ستسود بين من هم في دائرتي، ولكن بين أهل الريف الذين يتعذر الوصول إليهم.

أموالي لدى أغراب، وعلاقاتهم لا أستطيع سبر أغوارها؛ فإن أصابتهم مصيبة فلن أدري بها، فكيف يمكنني دفعها عنى.

فربما أسرفوا وأقاموا حفلًا في حديقة حانة، بينما شارك البعض منهم في هذا الحفل من أجل الفرار إلى أمريكا.

فإن أُغلِق المحل مساءَ يومِ عملٍ وأنا أرى ساعات قادمة لن أتمكن فيها من العمل تلبيةً لاحتياجات محلي المتلاحقة، ليبقى اضطرابي الذي ينتابني مسبقًا في الغد، مثل فيضان معاود في داخلي، لكنه لا يتوقف في داخلي ليسحبني دون هدف، إلا أنني لا أستطيع استغلال هذه الحالة مطلقًا ولا يسعني سوى العودة للبيت، فوجهي ويدي متسخان ومتعرقان وثوبي ملطخ ومغبر وقبعة عملي على رأسي وحذائي خدشته مسامير الصناديق.

فأمضي كأنني أسير فوق أمواج، ترتجف أصابع يدي فأمسد بها شعر أطفال مقبلين علي، لكن الطريق قصير للغاية وسأكون حالًا بالبيت، افتح باب المصعد وأدخل.

أرى الآن أنني صرت وحدي فجأة. يتعب آخرون بعض الشيء إن اضطروا إلى صعود الدرج فيتعين عليهم الانتظار لالتقاط أنفاس متسارعة إلى حين يأتي أحدهم ليفتح باب المسكن، ليكون لديهم في ذلك سببًا للغضب ونفاد الصبر، يدخلون الآن إلى غرفة الانتظار، حيث يعلقون قبعاتهم، وهم وحدهم فقط حتى يجتازوا الممر عبر بضعة أبواب زجاجية في غرفتهم الخاصة.

لكنني سرعان ما أكون وحدي بالمصعد معتمدًا ركبتيّ أنظر إلى المرآة الصغيرة. فإن بدأ المصعد في الارتفاع، أقول: «فلتهدآ، تراجعا، أتريدان أن تكونا في ظل الأشجار التي خلف ستائر النوافذ، في قبو أوراق النبات؟»

أتحدث بأسناني بينما سور السلم ينزلق إلى ألواح الزجاج المموهة مثل ماء جارف.

«حلقوا بعيدًا؛ أجنحتكم التي لم أرها من قبل، قد تحملكم إلى وادي الريف أو إلى باريس، إذا كنتم تتوقون إلى هناك».

فلتستمتعوا بالمنظر من النافذة حينما تهل مواكب من الشوارع الثلاثة كلها، فلا تتجنب بعضها البعض، ويتداخل بعضها ببعض وتسمح لمساحة خالية بالظهور مرة أخرى بين صفوفها الأخيرة.

لوحوا بالمناديل افزعوا، تأثروا، امدحوا السيدة الجميلة العابرة. اجتازوا الجدول عبر الجسر الخشبي، أومِئوا برأسكم للأطفال السابحين وادهشوا لهتافات آلاف البحارة على الطراد البعيد.

ما عليكم سوى مطاردة الرجل الخفي، فإذا ما دفعتم به إلى المدخل، اسرقوه ثم انظروا إليه، وكلٌّ يداه بجيوبه وهو يمضي حزينًا في طريقه إلى الزقاق الأيسر.

يقوم رجال الشرطة الراكضون على خيول بكبح جماحها، ليدفعوكم للخلف.

دعوهم، فالشوارع الخالية ستجعلهم غير سعداء، أنا أعرف ذلك. إنهم يقودون جيادهم، عفوًا، يعبرون أزواجًا ببطء ناصيات الطرق، طائرين فوق الميادين.

ثم يجب أن أغادر، وأدع المصعد يهبط، وأقرع جرس الباب، لتفتح الفتاة الباب بينما ألقي إليها بالتحية.

***

نظرة مشتتة إلى الخارج

ماذا سنفعل في أيام الربيع تلك التي داهمتنا الآن؟ كانت السماء هذا الصباح رمادية اللون، ولكن إذا مضيت إلى النافذة ستدهش وتتكئ بخدك على مقبض النافذة.

أدناها يمكنك أن ترى نور غروب الشمس بالفعل على وجه الصبية الطفلة، التي تمشي متلفتةً حولها، وفي الوقت نفسه ترى ظل الرجل الذي يسرع خلفها.

ثم يكون الرجل قد مرّ بالفعل ووجه الطفلة مشرق للغاية.

***

طريق العودة للبيت

يمكنك أن ترى قدرة إقناع الهواء بعد عاصفة رعدية، تظهر مزاياي لي وتغمرني إذا لم أقاوم.

أنا أسير ووتيرتي هي سرعة هذا الجانب من الزقاق، هذا الزقاق، من هذا الحي.

أنا مسؤول بحق عن كل قرع للأبواب، على أسطح الطاولات، عن كل الخبز المحمص، عن العشاق في فراشهم، في سقالات المباني الجديدة، في الأزقة المظلمة المضغوطة على جدران المنزل، على أرائك بيوت الدعارة.

أقدر ماضيّ مقابل مستقبلي، لكنني أجد كليهما ممتازًا، ولا يمكنني إعطاء الأفضلية لأي منهما ولا يتعين عليّ سوى إلقاء اللوم على ظلم العناية الإلهية، وهو ما يصب في صالحي.

فقط عندما أدخل إلى غرفتي، أكون شاردًا بعض الشيء، لكن دون أن أجد أي شيء يستحق التفكير فيه أثناء صعود السلالم.

لا يفيدني كثيرًا أن أفتح النافذة على مصراعيها، وأن الموسيقى لا تزال تُعزَف في الحديقة.

***

العابرون

إن تنزهت ليلًا بزقاق وكانت أرض الزقاق الذي أمامك تتصاعد والقمر مكتملًا لترى هناك رجلًا من بعيد - يركض نحونا، فلن نمسك به، حتى لو كان ضعيفًا رث الثياب حتى لو كان يركض أحدٌ وراءه صارخًا، فلسوف ندعه يمضي إلى حال سبيله.

لأننا بالليل ولا ذنب لنا أن أرض طريق الزقاق تتصاعد وأن القمر مكتمل، إضافةً إلى أنه، ربما يكون الاثنان قد رتبا هذه المطاردة من أجل الترفيه، ربما كلاهما يطاردان ثالثًا، ربما يُلَاحق الأول وهو بريء، ربما يسعى الثاني إلى القتل، فنتورط في جريمة قتل، ربما لا يعرف الاثنان بعضهما البعض، وكلٌ يسعى منفردًا إلى مأواه، ربما يكونان من هواة العس ليلًا، ربما يحمل الأول سلاحًا.

وأخيرًا، يجب ألا نجهد أنفسنا، ألم نشرب الكثير من النبيذ؟ نحن سعداء لأننا لم نعد نرى الثاني أيضًا.

***

الراكب

أقف على رصيف العربة الكهربائية، غير واثق مطلقًا من موضعي في هذا العالم، في هذه المدينة، بين أفراد عائلتي.

وكذلك فإني لا أستطيع حتى أن أزعم على نحوٍ عَرَضي بأي حق لي في اتجاه ما.

لا يمكنني الدفاع عن نفسي على الإطلاق لوقوفي على هذا الرصيف، أتعلق متشبثًا بهذه الحلقة وأن أسمح بأن تحملني هذه العربة، أو أن يفر الناس أمام العربة أو يمشون بهدوء أو يستريحون أمام نوافذ عرض المتاجر. فلا أحد يطلب مني ذلك، لكن لا يهم.

تقترب العربة من المحطة، فتاة تقف بالقرب من الدرج للنزول، بدت لي بوضوح إلى حد كأنني كنت قد تحسستها.. كانت ترتدي ملابس سوداء، أما ثنيات تنورتها فكانت بالكاد تتحرك، والبلوزة ضيقة ولها ياقة من دانتيل أبيض متشابك، وقد أراحت كف يدها اليسرى على الحائط، والمظلة بيمينها قد وضعتها على الدرجة الثانية العليا.. وجهها أسمر، وأنفها المضغوط برفق على الجانبين، ينتهي باستدارة واتساع. شعرها الأسمر غزير وشعيرات منه تهفهف على فودها الأيمن.

أذنها الصغيرة كانت ضيقة، ولكن لأنني كنت أقف قريبًا منها فكنت أرى الجزء الخلفي بالكامل لمحارة أذنها اليمنى وظلها حتى نهايتها.

حينذاك سألت نفسي: لماذا هي لا تعجب بنفسها، وهي تغلق فمها فلا تقول شيئًا من هذا القبيل؟.

***

فساتين

في كثير من الأحيان عندما أرى الفساتين ذات الطيات المتعددة والثنيات بأهداب تنسدل بجمال على أجساد جميلة، فأعتقد أنها لا تبقى على هذا النحو لفترة طويلة، لكنها ستتجعد، ولن تعود مستقيمة وتتعرض لغبار كثيف لا يمكن خلاص الزخرف منه، ولن ترغب إحداهن أن تحزن أو تعرض نفسها للسخرية لارتداء الفستان الثمين نفسه كل يوم في الصباح وخلعه في المساء.

لكني أرى فتيات جميلات يظهرن بقدٍّ نحيل رشيق مثير، لهن بشرة ناعمة، يستعرضن شعرهن الغزير الرقيق، إلا أنهن يظهرن كل يوم في هذا الرداء الطبيعي المقنّع، ويضعن دائمًا الوجه نفسه في راحة اليد نفسها ليخرجن من المرآة.

في بعض الأحيان فقط في المساء، عندما يأتين متأخرات من حفل، بدا لهن في المرآة باليًا، منتفخًا، متربًا، و قد رآه الجميع فلا يمكن ارتداؤه بعد الآن.

***

الرفض

عندما ألتقي بفتاة جميلة وأسألها: «ألا تفضلتِ وجئتِ معي؟»

فتجتازني صامتةً، فإنها تعني بهذا: «أنت لست دوقًا ذا اسم شهير، ولست أمريكيًا عريض المنكبين بقامة هندي أحمر، بعيون ساكنة جريئة.

ببشرة عركها هواء المروج والأنهار الجارفة ولم تقم برحلة إلى البحيرات الكبرى أو عليها، والتي لا أعرف أين أجدها. لذا فعفوًا، لماذا يجب عليّ أنا الفتاة الجميلة أن أذهب معك؟»

«أنت تنسى أنه ليس لديك عربة تحملك عبر الزقاق بسرعة شديدة؛ لا أرى رجال حاشيتك مختنقين في ملابسهم وهم يتمتمون بالدعاء لك بالبركات، يسيرون متحلقين خلفك، صدرك مضغوط في سترة ضيقة، لكن فخذيك وخصرك يعوضون الامتناع عن الجنس، وأنت لا ترتدي حلة من التفتاه ذات الثنايا كتلك التي سعدنا بها جميعًا في الخريف الماضي، ورغم ذلك فأنت تبتسم لهذا الخطر – أحيانًا».

«نعم، كلانا على حق، و لكي لا ندرك ذلك بشكل قاطع، فعلى كل منا العودة إلى بيته وحيدًا، أليس كذلك؟»

***

نافذة الزقاق

من عاش منعزلًا ولا يزال يرغب من حين لآخر في صحبة ما، من يتابع تغير أوقات النهار والطقس وعلاقات العمل وما شابه ذلك، ويريد أن يرى ذراعًا محببًا يمكنه أن يرتكز عليه فإنه لن يستطيع فعل ذلك دون نافذة على زقاق.

فإن صار حاله إلى أنه لا يبحث عن أي شيء، فأخذ كرجل متعب يتنقل بعينيه لأعلى ولأسفل بين الخلق والسماء، و يمضي إلى النافذة رغمًا عنه، فيميل برأسه إلى الوراء بعض الشيء لتجذبه الخيول وما يتبعها من عربات وضوضاء وفي النهاية كذلك التوافق البشري.

***

أمنية أن تصبح هنديًا أحمر

لو كنت هنديًا أحمر جاهزًا على الفور، وعلى جواد تركض وتتمايل، ترتجف لبرهة من حين لآخر فوق أرض ترتجف، حتى تترك المهماز، لأنه لم يكن هناك مهماز حتى تُلقي باللجام، لأنه لم يكن هناك لجام، ونادرًا ما ترى الأرض أمامك على أنها مروج مستوية بعد حصادها، بدون عنق جواد ودون رأس جواد.

***

الأشجار

لأننا مثل جذوع أشجار في جليد. تبدو هي كأنها مستلقية وبلكزة هينة تكون قادرًا على دفعها بعيدًا.

لا، لا يمكنك ذلك، لأنها مرتبطة بقوة بالأرض. لكن انظر، حتى هذا هو ما يبدو فقط.

***

قصص

تعاسة

عندما أصبح الأمر لا يطاق بالفعل – كنت أمشي ذات مساء في نوفمبر - عبر السجادة الضيقة بغرفتي كما لو كنت في مضمار سباق، خائفًا من مشهد الزقاق المضيء، استدرت ثانيةً، وفي أعماق الغرفة، في أسفل المرآة اكتسبت هدفًا جديدًا مرة أخرى، صرخت.. فقط لكي أسمع الصراخ الذي لا يجيب عليه شيء ولا شيء ينتزع منه قوة الصراخ التي ترتفع دون أن يحد منها قوة مضادة ولا يمكن أن يتوقف حتى وإن سكن، وإذا بباب ينفتح في الحائط، في عجلة؛ فالعجلة كانت مطلوبة.

حتى خيول العربات الحربية التي نزلت على الرصيف هبت منتفضة مثل خيول برية في معركة تثمن الصهيل.

من الممر المظلم تمامًا كان هناك طفل يقود عربة كشبح صغير، حيث لم يكن المصباح مضاءً بعد، وقد وقف على أطراف أصابعه فوق عارضة أرضية متأرجحة على نحو غير ملموس.

بعد أن غشى نظره شفق الغرفة على الفور، أراد وضع وجهه بسرعة بين يديه، لكنه فجأة هدأ روعه بالنظر إلى النافذة، التي بقي أخيرًا الضباب المتصاعد لمصابيح الطريق أمام عمودها تحت الظلام.

بمرفقه الأيمن استند منتصبًا على جدار الغرفة أمام الباب المفتوح، وترك التيار الهواء الخارجي يحف بمفاصل قدميه وكذلك عنقه، وكذلك على طول فوديه.

نظرت قليلًا، ثم قلت: «طاب نهارك»، وأخذت سترتي من على المدفأة لأنني لم أرغب في الوقوف هناك شبه عارٍ.

فغرت فمي لبرهة حتى أتخلص من اضطرابي. كان ريقي مرًا وكانت رموشي ترتجف فوق وجهي، بإيجاز..لم يكن ينقصني سوى هذه الزيارة التي طال انتظارها.

كان الطفل لا يزال واقفًا مستندًا إلى الحائط في نفس المكان، وبوجنتين متوردتين وهو يضغط بيده اليمنى على الحائط، وبدا أنه لا يشبع من الجدار الأبيض

الخشن فأخذ يحك أنامله هناك، قلت: «هل تريد حقًا رؤيتي؟ أليس هناك خطأ ما ؟ لا شيء أسهل من وقوع خطأ في هذا المنزل الكبير. اسمي كذا، أسكن في الطابق الثالث. فهل أنا الشخص الذي تريد زيارته؟»

«الهدوء من فضلك» قال الطفل دون أن يلتفت، «كل شيء على ما يرام».

«إذن فلتدخل إلى الغرفة، أريد أن أغلق الباب».

«لا داعي لأن تتعب نفسك لقد أغلقت الباب للتو، فلتطمئن تمامًا»

«لا تتحدث عن التعب، فالكثير من الناس يعيشون على جانبي هذا الممر، وجميعهم بالطبع من معارفي، ومعظمهم عائد الآن من أعمالهم، فإن سمعوا شخصًا يتحدث في الغرفة، فإنهم يعتقدون أن لهم حق فتح الباب لمعرفة ما يحدث. وهذا هو ما يحدث على أية حال، ولقد انتهى هؤلاء الناس من عملهم اليومي؛ فإلى من يلجؤون لشغل فراغ وقتهم مساءً..عامةً، أنت تعرف ذلك أيضًا. دعني أغلق الباب».

«ما الخطب؟ ماذا دهاك؟ ما عليّ إن أتى المنزل كله إلى هنا. ومرةً أخرى». أقول: «لقد أغلقت الباب بالفعل، هل تعتقد أنك الوحيد القادر على إغلاق الباب؟ حتى أنني أغلقته بالمفتاح».

«إذن إنه أمر جيد، لا أريد أكثر من ذلك، لم تكن بحاجة أن تغلقه بالمفتاح. والآن كن على راحتك طالما صرت هنا. أنت ضيفي، فلتثق بي تمامًا. تصرف كما شئت، فلن أرغمك على البقاء هنا أو المغادرة، هل كان يجب أن أقول ذلك؟ ألا تعرفني جيدًا؟»

«لا، لم يكن عليك أن تقول ذلك حقًا. بل، لم يكن عليك قول ذلك على الإطلاق. فأنا طفل؛ فلماذا كل هذا التكلف؟»

«الأمر ليس بهذا السوء. بالطبع أنت طفل، لكنك لست صغيرًا، فأنت شخص بالغ. وإن كنت فتاة ما كان يمكنك أن تغلق الغرفة علينا».

«لا داعي للقلق بشأن ذلك، أردت فقط أن أقول: معرفتي الجيدة بك تحميني بعض الشيء؛ وهذا يرفع عنك حرج الكذب عليّ. ورغم ذلك تجاملني، دعك من هذا.

أطالبك بأن تدع ذلك، وإضافةً إلى ذلك، فأنا لا أعرفك معرفة جيدة، خاصةً في هذا الظلام. سيكون من الأفضل لو أضأت الأنوار. كلا بالأحرى لا، على الأقل حتى أتذكر أنك هددتني بالفعل».

«ماذا؟ أنا هددتك؟ ليس صحيحًا، فأنا سعيد جدًا لأنك هنا أخيرًا».

أقول «أخيرًا» لأن الوقت متأخر جدًا، وأنا لا أستطيع أن أفهم لماذا أتيت متأخرًا جدًا، من الممكن أن تكون فرحتي مشوشة للغاية وأنك فهمتني على هذا النحو.

أقر عشر مرات أنني تحدثت بهذا الأسلوب، نعم.. لقد هددتك بأي شيء تزعمه - فقط لا شجار، بحق السماء - لكن كيف تصدق ذلك؟ كيف يمكن أن تسيء إليّ هكذا؟ لماذا تعمل بكل قوتك على إفساد هذه الفترة القصيرة من وجودك هنا ؟ أي شخص غريب كان سيكون أكثر تفهمًا منك.

«أعتقد ذلك؛ لم يكن هذا من الحكمة. فأنا بطبيعتي أقرب لك من أى شخص غريب. أنت تعرف ذلك أيضًا، فلماذا الأسى؟ فإن قلت إنك تهزل فسوف أغادر في الحال».

«أهكذا؟ أتجرؤ على أن تقول لي ذلك أيضًا؟ أنت جريء بعض الشيء، في النهاية أنت في غرفتي، أنت تحك أصابعك بجداري كالمجانين. إنها غرفتي، إنه جداري وإضافةً لذلك، فإن ما تقوله سخيفًا، وليس مجرد وقاحة، أنت تقول إن طبيعتك تجبرك على التحدث معي هكذا. حقًا؟ هل أجبرتك طبيعتك؟ هذا كرم من طبيعتك. إن طبيعتك هي طبيعتي، فإن كان مسلكي بطبيعته نحوك ودودًا، فلا يجب أن تكون أنت غير ذلك؟»

«هل هذا أسلوب ودود؟»

«أنا أتحدث عن الماضي».

«هل تعرف كيف سأكون لاحقًا؟»

«لا أعرف أي شيء»

وذهبت إلى الكومود حيث أشعلت الشمعة. ففي ذلك الحين لم يكن لديّ غاز ولا كهرباء في غرفتي.

جلست إلى الطاولة لفترة حتى أدركني التعب من ذلك أيضًا، فارتديت معطفي، وأخذت قبعتي من الأريكة وأطفأت الشمعة، عند مغادرتي علقت ساقي بكرسي.

على الدرج قابلت مستأجرًا من الطابق نفسه.

«هل ستغادر مرة أخرى، أيها الوغد؟»

هكذا سأل وهو يستقر على ساقيه على درجتين من السلم.

فقلت: «ما عساي أن أفعل؟ فلدي الآن شبح في غرفتي».

«تقول ذلك بنفس الاستياء كما لو كنت قد وجدت شعرة بالحساء».

«أنت تهزل لكن عليك أن تنتبه إلى أن الشبح هو شبح»

«هذا صحيح للغاية. ولكن كيف؟ وأنت لا تؤمن بالأشباح على الإطلاق؟».

«تقصد، أنني أؤمن بالأشباح؟ ولكن ما فائدة عدم الإيمان هذا؟»

«ببساطة شديدة أنه لن يكون لديك داع للخوف عندما يأتي إليك شبح».

نعم، لكن هذا خوف بسيط. فالخوف الحقيقي هو الخوف من سبب ظهور الأشباح هذا الخوف هو الباقي، وهو هذا الخوف العظيم بداخلي.

«دفعني التوتر إلى البحث في كل جيوبي، لكن بما أنك لم تخف من ظهور الشبح بحد ذاته، كان بإمكانك أن تسأل عن سبب ذلك».

«من الواضح أنك لم تتحدث مع أشباح من قبل، وليس بوسعك الحصول منهم على معلومات واضحة. إن هذه مراوحة، هذه الأشباح تبدو أكثر شكًا في وجودها مما نحن عليه، وهذا بالمناسبة ليس بالأمر الغريب نظرًا لوهنها،

لكنني سمعت أنه يمكن إطعامها»

«معلوماتك جيدة بهذا الشأن. هذا يمكن أن يكون، ولكن من سيفعل ذلك؟»

قال: «لمَ لا؟ إذا كانت أنثى على سبيل المثال، وأخذت تتأرجح على درجة السلم العليا».

قلت: «أوه».

وقلت لنفسي متأملًا: «لكن حتى هذه الحال لا تؤيد ذلك».

كان جاري يقف بموضع مرتفع حتى أنه اضطر أن ينحني تحت قوس بئر السلم ليراني.

هتفت: «لكن مع ذلك، إذا أخذت شبحي مني، فإن الأمر سينتهي بيننا إلى الأبد».

قال وهو يسحب رأسه للخلف: «لم يكن هذا سوى مزاحًا».

قلت: «إذن هذا جيد».

وكان عليّ أن أمضي الآن للتنزه. لكن لأنني شعرت بالوحدة، صعدت إلى الطابق العلوي ورقدت لأنام.

***

صمت السارينات(1)

إن صمت السارينات لدليلٌ على أن حتى الوسائل غير الملائمة وإن كانت صبيانية فيمكنها أن تساعد أيضًا في النجاة:

فمن أجل حماية نفسه من السارينات حشا «أوديسيوس» أذنيه بالشمع و شدّ وثاق نفسه إلى صاري السفينة. بالطبع، كان بإمكان جميع المسافرين فعل الشيء نفسه منذ زمن بعيد، باستثناء أولئك الذين أغوتهم السارينات عن بعد، لكن كان معروفًا في جميع أنحاء العالم أن هذا ليس بالحل الناجع.

كان غناء السارينات يخترق كل شيء، وكان شغف المغوي يمكن أن يكسر ما هو أقوى من السلاسل والصواري. لكن «أوديسيوس» لم يفكر في ذلك رغم أنه ربما سمع به، لقد وثق تمامًا في حفنة الشمع وحزمة السلاسل، وبفرح بريء بوسيلته تلك، توجه نحو السارينات.

إلا أن السارينات صار لديهن الآن سلاحًا أكثر ترويعًا من الغناء، ألا وهو الصمت.

لم يحدث، لكن ربما من المعقول أن كان هناك من نجا من غنائهن، ولكن يقينًا لم يكن هناك من نجا من صمتهن.

لا شيء على الأرض يمكنه أن يحدّ من شعور المرء بقهره لهن بقوته الشخصية، وما يترتب على ذلك من تعالٍ جارف.

وحقًا، عندما جاء «أوديسيوس»، لم تغن أبرع المغنيات، سواء كان ذلك لاعتقادهن أن الصمت وحده يمكن أن يقهر هذا الخصم، أو أنهن قد نسين كل أنواع الغناء لرؤيتهن الغبطة على وجه «أوديسيوس» الذي لم يكن يفكر في غير الشمع والسلاسل.

لكن «أوديسيوس» بعبارة أخرى، لم ينتبه لصمتهن؛ فكان يعتقد أنهن يغنين، وكان يظن أنه حمى نفسه من سماعهن. في البداية لمح تمايل أعناقهن، وأنفاسهن العميقة، وعيونهن الدامعة، وأفواههن شبه المفتوحة، فقد اعتقد أن هذه كانت واحدة من

الألحان التي تلاشت من حوله فلم يسمعها أحد.

ولكن سرعان ما تناءى كل شيء عن نظراته المتجهة المدى البعيد، واختفت السارينات بالفعل أمام إصراره، وما أن دنا منهن حتى لم يعد يعرف شيئًا عنهن. أما هن – وقد صرن أجمل من أي وقت مضى – فقد تمددن واستدرن وقد أطلقن شعورهن المروعة لمهب الريح ومددن مخالبهن بحرية على الصخر.

لقد فقدن رغبتهن في الإغواء، ولم يرغبن سوى في التقاط بريق عيني «أوديسيوس» الواسعتين لأطول مدى ممكن. ولو أن السارينات امتلكن الوعي حينها لكان قُضيَ عليهن، لكنهن بقين على هذا النحو، ولم يفلت منهن سوى «أوديسيوس».

عامةً فقد وصلتنا أيضًا إضافة لهذا. تقول إن «أوديسيوس» كان واسع الحيلة، إلى حد أنه كان مثل ثعلب لم تستطع حتى إلاهات القدر سبر أغواره.

ورغم أن العقل البشري لم يعد بوسعه فهم هذا، إلا أن «أوديسيوس» ربما لاحظ صمت السارينات حقًا ولم يلجأ لمسلكه الظاهري المذكور ضدهم وضد الآلهة إلا كنوع من الدفاع.

***

الحكم

حدث صباح يومٍ أحدٍ في أجمل أوقات الربيع أن كان جورج بيندمان، التاجر الشاب جالسًا بغرفته الخاصة بالطابق الأول بأحد البيوت المنخفضة والمضيئة الممتدة على طول النهر في صف طويل، ولا يكاد يختلف ارتفاعها ولونها.

كان قد انتهى للتو من صياغة رسالة إلى صديق طفولته يعيش بالخارج، وأغلقها ببطء بنحو مصطنع، ثم وضع مرفقه على طاولة متطلعًا من النافذة إلى النهر والجسر والتلال على الضفة الأخرى بلونها الأخضر الخافت.

تذكر كيف كان هذا الصديق غير راضٍ عن مسار حياته في وطنه، فهرب إلى روسيا منذ سنوات.

وصار يدير الآن مشروعًا تجاريًا في بطرسبورج ازدهر على نحوٍ طيب في البداية، ولكن يبدو أنه تعثر منذ فترة طويلة، كما كان يشكو الصديق بشكل متزايد خلال زياراته النادرة. هكذا كان قد شق طريقه بلا جدوى في بلد أجنبي، كانت اللحية الغريبة تغطي بنحو سيئ وجهه المعروف جيدًا منذ الطفولة الذي يشير لون بشرته الأصفر إلى مرض نشط.

وكما روى، فإنه لم يكن لديه علاقة إيجابية بجالية مواطنيه هناك، كما لم يكن لديه صلات اجتماعية تقريبًا مع العائلات المحلية، ولذا رتب نفسه على حياة عزوبة إلى ما لانهاية.

ماذا يجب أن يكتب لمثل هذا الرجل الذي من الواضح أنه ضل طريقه، والذي يؤسف له وليس بوسعه مساعدته؟ هل ينبغي أن ينصحه بالعودة إلى الوطن، الانتقال للعيش هنا، واستئناف جميع علاقات الصداقة القديمة -التي لم يكن هناك ما يعوقها- وفيما عدا ذلك فإنه يمكنه الاعتماد على عون أصدقائه؟.

وهذا لم يكن ليعني غير أنه كلما كان عطوفًا، كان يصاب بأذى أعظم، وقد قال إن محاولاته السابقة باءت بالفشل، فعليه التخلي عنها أخيرًا، وعليه أن يعود ويعتبر نفسه شخصًا قد عاد للأبد. وعليه أن يعرب عن دهشته من كل من يراه لأن أصدقاءه

فقط هم الذين يفهمون شيئًا ما، وأنه كان طفلًا كبيرًا يتحتم عليه ببساطة أن يتبع أصدقاءه الناجحين الذين بقوا في الوطن.

وهل كان من المؤكد أن كل معاناة سببها البعض كان لها هدف؟ ربما لم يكن ممكنًا استعادته للوطن على الإطلاق – فقد قال هو نفسه إنه لم يعد يفهم الأحوال بوطنه - ولذا سيبقى في بلد أجنبي رغم كل شيء، يشعر بالمرارة من النصائح ويصير لأصدقائه أكثر غربة.

ولكن إذا اتبع النصيحة حقًا هنا - ليس عن إرادة، بالطبع، بل من خلال حقيقة أنه كان – سيتعب – فإن لم يتحقق بين أصدقائه ولا بدونهم، فإنه سيعاني الخزي، ولن يكون له وطن حقًا ولا أصدقاء بعد الآن، وهو ما لم يكن أفضل بكثير له، هكذا يكون أقام في أرض أجنبية كما كان؟.

هل كان من الممكن في مثل هذه الظروف، الاعتقاد بأنه سيحرز تقدمًا هنا بالفعل؟ لهذه الأسباب حال الحفاظ على التواصل بالبريد، فإنه لا يمكن لنا أن نمده بأية معلومات شخصية، كما نفعل دون تردد مع أبعد المعارف.

لم يتواجد هذا الصديق في الوطن من أكثر من ثلاث سنوات وقد فسر ذلك بصيغة مخلة للغاية بأن السبب هو الوضع السياسي غير الآمن في روسيا الذي لم يسمح بتغيب رجل أعمال صغير لمدة وجيزة، بينما كان مئات الآلاف من الروس يجوبون العالم مطمئنين.

لكن خلال هذه السنوات الثلاثة كان الكثير قد تغير بالنسبة لجورج على وجه الخصوص. فقد علم الصديق بوفاة والدة جورج قبل حوالي عامين ومنذ ذلك الحين كان جورج قد عاش في منزل مشترك مع والده المسن، وقد أعرب عن تعازيه في رسالة بأسلوب جاف الذي كان سببه الوحيد أن الشعور بالحزن لمثل هذا الحدث في بلد أجنبي لا يمكن تصوره.

ولكن منذ ذلك الوقت أخذ جورج يتعامل مع عمله بتصميم أكبر، مثله مثل أي شيء آخر.

ربما كان أبوه هو من عطّل مسار عمله الشخصي الحقيقي بفرض وجهة نظره في العمل أثناء حياة أمه؛ وربما أصبح الأب أكثر تردّدًا منذ وفاة الأم، رغم أنه كان لا يزال يعمل في هذا المجال.

ربما لعبت الصدف السعيدة دورًا أكثر أهمية - وهو أمر محتمل جدًا - ولكن على أية حال، فقد أحرز العمل خلال هذين العامين تقدمًا بنحو غير متوقع تمامًا، وكان لابد من مضاعفة عدد العاملين، وارتفعت نسبة المبيعات لخمسة أضعاف، وكان ينتظر المزيد من التقدم بلا شك.

لكن لم يكن لدى الصديق أية فكرة عن هذا التغيير. في وقت سابق، حاول إقناع جورج بالهجرة إلى روسيا ربما كان ذلك للمرة الأخيرة في خطاب التعزية هذا، وجهزه للفرص المتوافرة في مجال عمل جورج في بطرسبورج.

كانت الأرقام تتلاشى مقارنة بالحجم الذي بلغته أعمال جورج حينذاك. ومع ذلك لم يكن لدى جورج أية رغبة في الكتابة إلى صديقه حول نجاحاته التجارية.

ولو أنه فعل ذلك الآن بأثر رجعي، لبدا الأمر غريبًا حقًا. لذا اقتصر جورج على الكتابة إلى صديقه عن أحداث بلا أهمية، مثل تلك التي تتراكم في الذاكرة عندما نفكر في الأمر في يوم أحد هادئ.

لم يكن يبغي سوى ألا يعكر تصور صديقه عن مسقط رأسه خلال الفترة الماضية الطويلة وهو التصور الذي اطمأن إليه.

لذلك حدث أن جورج أبلغ صديقه عن خطوبة شخص غير مهم لفتاة غير مهمة ثلاث مرات في خطابات على فترات متباعدة إلى حدٍّ ما، ولكن حتى ذلك الحين وعلى عكس مقصد جورج، بدأ الصديق يهتم بهذا الحدث الغريب.

وكان جورج يفضل أن يكتب له مثل هذه الأشياء على أن يعترف أنه منذ شهر أنه خطب الآنسة فريدا براندنفلد، وهي فتاة من عائلة ثرية.

وكان غالبًا ما يخبر عروسه عن هذا الصديق والمراسلات الخاصة بينهما.

قالت: «إنه لن يحضر حفل زفافنا، وأنا لي الحق في التعرف على جميع أصدقائك».

أجاب جورج: «لا أريد أن أزعجه».

«افهميني جيدًا، من المحتمل أن يأتي على الأقل أعتقد أنا ذلك، لكنه سيشعر بأنه مرغم ويشعر بالضرر، وربما يحسدني وسيكون يقينًا غير راضٍ وغير قادر على الخلاص من هذا الاستياء والعودة بمفرده مرة أخرى بمفرده - هل تدركين معنى هذا؟»

«ألا يمكنه معرفة زواجنا عن طريق آخرين؟»

«لا يمكنني منع ذلك، ولكنه من غير المرجح لأن هذا لا يوافق أسلوب حياته».

«جورج: إذا كان لديك أصدقاء مثل هذا، ما كان يجب أن تخطب على الإطلاق»

«نعم، هذا خطؤنا المشترك؛ لكنني لا أرغب في تغيير ذلك الآن».

قالت لاهثة تحت تأثير قبلاته: «في الواقع، هذا يؤلمني».

واعتبرت أنه لا حرج أن يكتب كل شيء إلى صديقه. وقال لنفسه: «هكذا أنا وهكذا يجب عليه أن يقبلني. لا أستطيع أن أجعل من نفسي شخصًا أكثر ملاءمة لصداقته مما أنا عليه».

لكنه في الواقع أخبر صديقه في رسالة طويلة كتبها صباح يوم الأحد بأن الخطوبة تمت بالكلمات التالية: «لقد فضلت الاحتفاظ بأفضل الأخبار لنهاية الرسالة. فقد تمت خطبتي للآنسة فريدا براندنفلد وهي فتاة من عائلة ثرية انتقلت للإقامة هنا بعد مغادرتك بفترة طويلة ولذلك فأنت لا تعرفها».

ستظل هناك فرصة لإخبارك بالمزيد عن عروسي، أما اليوم فيكفيك أن أكون سعيدًا جدًا وأن شيئًا ما قد تغير في علاقتنا المشتركة فقد صار لديك الآن صديقًا سعيدًا بدلًا من الصديق الذي ألفته سابقًا.

و إضافةً إلى ذلك فسوف يكون لك في عروسي صديق مخلص، وهي ترسل لك

أطيب تحياتها وسوف تكتب إليك في المستقبل القريب، وهو أمر لا يخلو من أهمية لأعزب مثلك.

«أعلم أن هناك العديد من الأسباب التي تمنعك من زيارتنا، ولكن ألا يكون حفل زفافي على وجه الخصوص فرصة مناسبة لاجتياز الموانع كافة؟ ولكن مهما كان الأمر، فتدبر أمرك دون أي اعتبار ووفقًا لرأيك الحقيقي فقط».

ممسكًا هذه الرسالة بيده، جلس جورج إلى مكتبه لفترة طويلة وقد تحول وجهه نحو النافذة. ورد بابتسامة غائبة على أحد معارفه الذي حياه أثناء مروره بالزقاق. في نهاية الأمر وضع الرسالة في جيبه وخرج من غرفته عبر ممر صغير إلى غرفة والده التي لم يطأها منذ شهور.

فلم يكن بحاجة إلى ذلك لأنه كان يشارك والده العمل دائمًا وكانا يتناولان الغداء في مطعم في نفس الوقت وفي المساء كان كل منهما يهتم بشأن نفسه كما يحلو له، لكنهما كانا يجلسان سويًا غالبًا بغرفة المعيشة المشتركة وبين يدي كل منهما جريدته، وكان هذا يحدث حال عدم لقاء جورج بأصدقائه أو زيارته لعروسه حينئذٍ كما كان يحدث غالبًا.

دهش جورج من مدى الظلام الذي خيم على غرفة والده حتى في هذا الضحى المشمس، فكان الجدار العالي الذي يرتفع إلى ما وراء الفناء الضيق يلقي بمثل هذه الظلال. وقد جلس الأب بجانب النافذة بأحد الأركان الذي ازدان بمختلف تذكارات الأم المباركة وأخذ يطالع جريدة رفعها مائلة أمام عينيه محاولًا تعويض ضعف بصره.

وعلى الطاولة كانت بقايا طعام الفطور الذي لم يتناول منه الكثير.

«آه.. جورج» هكذا قال الأب، وهو يتوجه مباشرة للقائه وأثناء ذلك انفتح ثوبه الثقيل وصارت أطرافه ترفرف حوله.

«لا يزال أبي عملاقًا» هكذا قال جورج لنفسه، ثم قال لأبيه: «الظلام هنا لا يطاق».
أجاب الأب: «نعم، لقد حل الظلام بالفعل».

«لكنك أغلقت النافذة أيضًا؟»

«أنا أفضل ذلك على هذا النحو».

فقال: «جوروج إن الجو حار حقًا بالخارج»، كأنه يضيف إلى ما قاله من قبل ثم جلس.

أما الأب فقام برفع أطباق الفطور ووضعها في صوان. استرسل جورج متابعًا بغير انتباه تحركات الرجل العجوز: «في الواقع، أردت فقط أن أخبرك بأني قد كتبت رسالة الآن عن خطوبتي إلى بطرسبورج».

أخرج جورج الرسالة من جيبه وتركها تسقط مكانها مرة أخرى، فسأل الأب «لماذا بطرسبورج؟».

قال جورج وهو يبحث عن عيني والده: «أبلغ صديقي». – و فكر « إنه هنا يختلف تمامًا عما يكون عليه بالمتجر فها هو يفكر متأملًا جالسًا هنا براحته عاقدًا ذراعيه على صدره».

«نعم»

قال الأب باهتمام.

«أنت تعرف يا أبي أنني أردت أن أخفي عنه أمر خطوبتي في البداية بدافع الحرص لا لسبب آخر، فأنت تعرف أنه شخص صعب المراس».

فقد قلت لنفسي إنه قد يعرف بالفعل بأمر خطوبتي من مصدر آخر ولا يمكنني منع ذلك، وإن كان ذلك أمرًا مستبعدًا بسبب عزلته، لكن لا ينبغي أن يعرف ذلك عن طريقي».

«والآن هل غيرت رأيك مرة أخرى؟» هكذا قال الأب وهو يضع الصحيفة على عارضة النافذة ويضع نظارته فوقها ويغطيها بيده.

نعم، الآن فكرت في الأمر مرة أخرى. فإن كان هو صديقي العزيز، كما قلت لنفسي، فإنه سيفرح بخبر خطوبتي السعيدة، ولهذا لم أتردد في إبلاغه بذلك.

وقد شئت أن أخبرك بهذا قبل أن أرسل الخطاب.

فقال والده وهو يفتح فمه الخالي من الأسنان: «جورج، استمع.. لقد أتيت إليّ للتشاور معي بشأن هذا الأمر، وهذا أمر جدير بالاحترام بلا شك، لكن ليس هناك ما هو أسوأ من أن لا تخبرني بالحقيقة الكاملة الآن.

ولا أريد إثارة أمور غير خاصة بنا هنا، فمنذ وفاة والدتنا الغالية حدثت بعض الأمور غير السارة. ربما سيحين وقتها أيضًا، وربما يأتي في وقت أقرب مما نعتقد. ففي العمل تفوتنى بعض الأمور التي ربما لا تخفي عني – فأنا لا أريد الآن افتراض أنها تخفي عني.

وأنا لم أعد قويًا بما يكفي، فذاكرتي تتلاشى، لم يعد بوسعي متابعة كل هذه الأمور الكثيرة. إنها سنة الحياة، هذا أولًا، وثانيًا، لقد فعلت وفاة الوالدة الغالية بي أكثر مما فعلت بك.

لكن بما أننا توقفنا عند هذه النقطة في هذه الرسالة، فإني أتوسل إليك جورج ألا تخطئ. إنه أمر لا يستحق، فلا تخادعني. هل حقًا لديك هذا الصديق في بطرسبورج؟.

نهض جورج مضطربًا، وقال: «لندع أصدقائي جانبًا. فألف صديق لا يعوضني عن والدي، هل تعرف ما أعتقده؟ أنت لا تهتم بشأن نفسك بما يكفي. فلكل سن حكمه، وأنا لا أستطيع الاستغناء عنك في العمل، أنت تعرف ذلك جيدًا، ولكن إن هدد العمل صحتك، فسوف أغلق المحل غدًا إلى الأبد. هذا حال لن يستمر، فعلينا أن نتبع أسلوب حياة مختلف يناسبك. لكن من الألف إلى الياء، أنت تجلس هنا في الظلام، بينما لديك ضوء كاف في غرفة المعيشة. أنت تحتسي شيئًا من الفطور بدلًا من الاهتمام بتغذية نفسك بنحو صحيح، وتجلس بجانب نافذة مغلقة رغم أن الهواء سوف يفيدك. لا يا والدي، سأحضر الطبيب وسنتبع تعليماته. سنتبادل الغرف، ستنتقل أنت إلى الغرفة الأمامية وأنتقل أنا إلى هنا، لن يكون هناك تغيير بالنسبة لك، سيتم نقل كل شيء.

ولكن هناك متسعًا من الوقت لكل هذا، استلقِ الآن في السرير لفترة أطول، فأنت بحاجة ماسة إلى الراحة. تعال، سأساعدك على خلع ملابسك، سترى أنه يمكنني ذلك، أم أنك تريد الذهاب مباشرة إلى الغرفة الأمامية، ثم تستلقي على سريري في الوقت الحالي. بالمناسبة، سيكون هذا منتهى التعقل».

كان جورج يقف على مقربة من والده، الذي خفض رأسه الأشيب الأشعث على صدره. ودون أن يتحرك قال بهدوء: «جورج». فجثا جورج على الفور بجانب والده ورأى حدقتي العين المتضخمين بوجه الأب المتعب وهما ترمقانه.

«ليس لديك صديق في بطرسبورج. لقد كنت دائمًا مهرجًا ولم تتورع عن فعل ذلك معي أيضًا. كيف يفترض أن يكون لديك صديق هناك، أنا لا أصدق ذلك».

فقال جورج: «فكر في الأمر مرة أخرى، يا أبي»، ثم رفع والده من الكرسي، وبينما كان يقف الآن ضعيفًا للغاية، خلع عنه رداء النوم.

وقريبًا سيكون قد مر ثلاث سنوات على زيارة صديقي لنا. و ما زلتُ أتذكر أنك لم تحبه كثيرًا. وقد أخفيت وجوده عنك منه مرتين على الأقل، رغم وجوده بغرفتي. يمكنني أن أفهم جيدًا كرهك له، فصديقي لديه سماته الخاصة، ولكن بعد ذلك تجاذبت معه أطراف الحديث مرة أخرى على نحو طيب. وكنت أنا فخورًا جدًا حينذاك لأنك كنت تسمع إليه وتومئ برأسك وتسأله. فإذا فكرت فإنك سوف تتذكر ذلك.

«وقد روى حينذاك قصصًا لا تصدق عن الثورة الروسية. أنه على سبيل المثال، أثناء رحلة عمل له في كييف كان قد وقعت اضطرابات فرأى رجل دين بشرفة وقد شق بالدم صليبًا كبيرًا في راحة يده، ورفع تلك اليد ونادى وهو يهتف في الجموع. لقد ذكرت بنفسك هذه القصة بين حين وآخر».

في غضون ذلك، تمكن جورج من إنزال والده مرة أخرى وخلع بنطاله الجيرسيه الذي كان يرتديه فوق سرواله الكتان وخلع جواربه كذلك. فلما رأى ملابسه غير نظيفة للغاية، لام نفسه على إهماله لوالده.

يقينًا كان من واجبه الاهتمام بتغيير ملابس أبيه الداخلية، وهو لم يتحدث بعد صراحة مع عروسه حول كيفية ترتيب مستقبل الأب، لأنهما افترضا ضمنيًا أن الأب سيقيم بمفرده بالشقة القديمة.

لكنه الآن اتخذ بسرعة وبكل تصميم قرارًا بأن يصطحب والده معه إلى منزله الجديد. وقد بدا، إن دققنا النظر، أن الرعاية التي يجب أن تُعطى للأب هناك قد تأتي بعد فوات الأوان.

حمل والده بين ذراعيه إلى الفراش.

كان يشعر بشعور رهيب أثناء ما كان يقطع بضع خطوات نحو الفراش عندما لاحظ أن والده كان يلعب بسلسلة ساعته المعلقة بصدره.

لم يستطع وضعه في الفراش على الفور فقد كان متمسكًا بسلسلة الساعة هذه بإحكام شديد، ولكن ما كاد يستقر بالفراش حتى بدا كل شيء على ما يرام، فغطى نفسه ثم سحب الغطاء خاصةً فوق كتفه.

لم ينظر إلى جورج نظرة غير ودية، فسأله جورج وأومأ برأسه مشجعًا «ألا تتذكره بالفعل؟» وسأله الأب: «هل أنا مغطى جيدًا الآن؟» كأنه لم يستطع رؤية إن كان الغطاء يستر قدميه.

«إذن أنت تحب الفراش بالفعل».

قال جورج وهو يحسّن وضع الغطاء حوله.

«هل أنا مغطى جيدًا؟»

سأل الأب مرّةً أخرى، وبدا أنه يولي اهتمامًا خاصًا بالإجابة.

«فلتطمئن، أنت مغطى جيدًا».

«لا»

صرخ الأب بقوة ردًا على السؤال فأطاح بالغطاء مرة أخرى بقوة حتى انفتح تمامًا

للحظة، ووقف منتصبًا في السرير، وقد استند بيد واحدة برفق إلى السقف.

«أردت أن تغطيني، أعلم ذلك يا صغيري، لكنني لم أستر بعد. حتى لو كانت آخر ما تملك من قوة، فهي تكفيك، بل تتجاوز ما يكفيك. أنا أعرف صديقك جيدًا ويكاد يكون الابن الذي اخترته، لهذا السبب خدعته أنت كل هذه السنوات، وهل هناك سبب آخر؟ هل تعتقد أنني لم أبك من أجله؟ فلهذا السبب تحبس نفسك في مكتبك ولا ينبغي لأحد أن يزعجك، فالمدير مشغول - فقط حتى تتمكن من كتابة رسائلك المزيفة إلى روسيا. لكن لحسن الحظ، لا أحد يمكن أن يُعلّم الأب كيف يسبر أغوار ابنه. فلقد اعتقدت الآن أنك قد قهرته، قهرته حتى جثمت على صدره فلا يستطيع حراكًا، و لذلك قرر السيد ابني أن يتزوج».

تأمل جورج صورة أبيه المروعة وقد تأثر تأثيرًا لم يعرفه من قبل بأن والده صار فجأة يعرف صديقه في بطرسبورج جيدًا وصار يراه ضائعًا في روسيا الشاسعة.

وكان قد رآه عند باب المحل الخالي المسروق واقفًا بين أنقاض الأرفف، والبضائع الممزقة والمرافق المعطلة، لماذا اضطر إلى السفر بعيدًا.

«لكن انظر إليّ».

هكذا صاح والده، فركض جورج، شبه شارد الذهن، إلى الفراش لإدراك كل شيء، لكنه توقف في منتصف الطريق.

«لأنها رفعت تنورتها» وهنا بدأ الأب في الصفير واستطرد: «لأنها رفعت تنورتها على هذا النحو، تلك الغانية المثيرة للاشمئزاز».

ولتوضيح ذلك، رفع قميصه عاليًا بحيث يمكن رؤية الندبة على فخذه، الإصابة في سنوات الحرب. «لأنها رفعت تنورتها هكذا وهكذا، فهل واقعتها، ولكي تقضي وطرك منها دون إزعاج، فقد دنست ذكرى أمنا، وخنت صديقك وألقيت بوالدك في الفراش حتى لا يستطيع التحرك. لكن هل يستطيع أن يتحرك أم لا؟»

ثم وقف حرًا تمامًا، وهو يؤرجح ساقيه، وابتسم متدبرًا.

وقف جورج بركن بعيد قدر الإمكان عن والده، وكان قد قرر منذ فترة طويلة أن يراقب كل شيء عن كثب حتى لا يفاجأ على نحو ما بفعل غير متوقع من خلف، أو من علٍ.

فتذكر ثانيةً القرار المنسي منذ فترة طويلة كما ينسى المرء كيفية سحب خيط قصير خلال سم الإبرة.

«لكن الصديق لم يتعرض للخيانة بعد».

هكذا صاح الأب مؤكدًا على ذلك بأن حرك سبابته وأضاف: «فقد كنت ممثلًا له هنا».

«ممثل كوميدي»

لم يستطع جورج كبت الصرخة بعدما أدرك الضرر على الفور، بعد فوات الأوان، وعض - وعيناه متجمدتان - في لسانه حتى أنه تلوى من الألم.

«نعم، بالطبع قدمت مشهدًا كوميديًا.. كوميديا، كلمة رائعة. فما تبقى من عزاء آخر لأب أرمل عجوز؟ قل – وفي لحظة الإجابة عليك أن تظل ابني الحي – ماذا تبقى لي في غرفتي الخلفية».

ويلاحقني خدم غير مخلصين، عجوز بلغ من العمر أرذله؟.

أما ابني فقد طاف بالعالم مبتهجًا، يعقد صفقات كنت أنا من رتَّبها، وهو يهتز طربًا متجاهلًا والده بوجه رجل نبيل، هل تعتقد أنني لم أحبك، وأنا سبب وجودك.

فكر جورج: «الآن سوف يميل إلى الأمام، ماذا سيحدث إن سقط وتحطم».

سيطر هذا الهاجس عليه، أما الأب فقد انحنى إلى الأمام لكنه لم يسقط، فلما رأى أن جورج لم يقترب كما توقع، نهض مرة أخرى.

«ابق حيث أنت، لست بحاجة إليك، أنت تظن أنه لا يزال لديك القوة للمجيء إلى هنا وما يمنعك فقط هو أنك لا تريد ذلك، وحتى لا تتحير فإني ما زلت الأقوى».

كان من الممكن أن أتراجع وحدي، لكن هكذا منحتني الوالدة قوتها، فأما صديقك فلقد ارتبطت أنا به بنحوٍ رائع، وأما عملاؤك ففي جيبي».

«لديه جيوب حتى في قميصه».

هكذا قال جورج لنفسه معتقدًا أنه بهذه المقولة يمكن أن يجعل له الأمر مستحيلًا في العالم كله.

لقد فكرفي ذلك للحظة فقط، لأنه عادة ما ينسى كل شيء.

«ما عليك إلا أن تتأبط ذراع عروسك وتعال لمقابلتي، ولسوف أفقدك إياها، أنت لا تعرف كيف».

تجهم جورج كما لو أنه لم يصدق ذلك، بينما أومأ الأب برأسه تجاه جورج بالركن، مؤكدًا حقيقة ما قاله: «كيف حادثتني اليوم لما جئت تسأل عما إذا كان يجب عليك الكتابة إلى صديقك حول الخطوبة».

إنه يعرف كل شيء أيها الفتى الغبي، إنه يعرف كل شيء، لقد كتبتُ إليه لأنك نسيت أن تسحب مني أدوات الكتابة الخاصة بي، هذا هو السبب في أنه لم يأت منذ سنوات، فهو يعرف كل شيء أفضل منك مائة مرة، بيده اليسرى يكرمش رسائلك ولا يقرأها بينما يحمل رسائلي في يمينه لقراءتها. أخذ يلوح بذراعه فوق رأسه فرحًا وهو يردد: «إنه يعرف كل شيءعلى نحو أفضل، بل أفضل بألف مرة».

عشرة آلاف مرة. هكذا قال جورج ليهزأ بوالده، إلا أن الكلمة ضُبغت بنبرة شديدة الجدية في فمه.

«منذ سنوات كنت أنتظر أن تأتيني بهذا السؤال، هل تعتقد أنني أهتم بشيء آخر؟ هل تعتقد أنني أقرأ الصحف؟».

فها هي.. وألقى إلى جورج بصحيفة وجدت طريقها على نحو ما إلى الفراش. صحيفة قديمة تحمل اسمًا لم يكن معروفًا تمامًا لجورج.

كم من الوقت ترددت فيه قبل أن تصير ناضجًا، كان على الأم أن تموت، فلم

تستطع العيش لرؤية يوم سعيد، والصديق يُقضى عليه في روسيا، فقبل ثلاث سنوات كان قد ذبل ليتم الخلاص منه، وأنا، يمكنك أن ترى كيف تسير الأمور معي، فلديك عيون لترى ذلك.

فصاح جورج:» كنت تتربص بي إذن».

فقال الأب متعاطفًا: «ربما صدقت إن قلت هذا قبل ذلك. أما الآن فلم يعد مناسبًا».

وبنبرة أعلى أضاف: «والآن أنت تعرف أن هناك غيرك، حتى الآن كنت لا تعرف إلا بوجودك أنت فقط، لقد كنت في الحقيقة طفلًا بريئًا، لكن الحقيقة الأكبر أنك كنت شيطانًا - وبالتالي فعليك أن تعرف: «قد حكمت عليك بالموت غرقًا».

شعر جورج أنه طُرد من الغرفة، وشعر أن الضربة التي هوى بها والده على السرير خلفه لا تزال ترن في أذنيه.

على السلم الذي سارع يهرول فوق درجاته كأنها سطح مائل، صدم الخادمة التي كانت على وشك الصعود لتنظيف المسكن فصرخت: «يا إلهي» وغطت وجهها بمئزرها، لكنه كان قد تجاوزها بالفعل. قفز من البوابة عابرًا الطريق المؤدي إلى الماء، وكان يمسك بالسور مثل جائع يتشبث بطعامه.

تأرجح كلاعب جمباز ممتاز كان فخرًا لوالديه في سنوات مراهقته. كان لا يزال يعتمد على يديه الواهنتين، ثم رأى عربة من بين قضبان السور، عربة غطت بسهولة على سقوطه، فهتف بصوت خافت: «والديّ العزيزان، لقد أحببتكما دائمًا» وسقط على الأرض.

في تلك اللحظة كان الجسر مزدحمًا بحركة مرور كثيفة.

***

القرية التالية

اعتاد جدي أن يقول: «إن الحياة قصيرة على نحو مذهل، وهذا ما زال يحتشد الآن في ذاكرتي بشدة حتى أنني لا أكاد أفهم - على سبيل المثال - كيف يمكن لشاب أن يقرر الرحيل على ظهر جواد إلى قرية تالية دون خوف – بعيدًا عن الصدف المؤسفة – أن الزمن العادي الذي سيمر بسلام سوف يكفي لمثل هذه الرحلة».

***

النسر

كان هناك نسر ينقر في قدمي، وقد مزق بالفعل حذائي وجوربي، وصار الآن ينقر قدميه بنفسه، واستمر في فعله ثم أخذ يحوم حولي مضطربًا عدة مرات ليواصل فعلته، وكان أن مر رجل أخذ يراقبنى لفترة ثم سألني عن سبب تحملي للنسر.

قلت: «أنا عاجز، لقد جاء وبدأ يهاجمني، وبالطبع أردت أن أطرده، حتى أنني حاولت خنقه، لكن مثل هذا الطائر لديه قوى عظيمة، فأراد أن يهاجم وجهي ففضلت التضحية بقدميّ، وهما الآن ممزقان تقريبًا».

قال الرجل: «كيف تتحمل التعذيب هكذا، هب طلقة واحدة تقضي على النسر».

فسألت: «أهذا صحيح؟ فهل يمكنك القيام بذلك؟»

قال الرجل: «بكل سرور، يجب أن أعود إلى المنزل وأحضر بندقيتي، هل يمكنك أن تنتظر نصف ساعة أخرى؟.

قلت: «لا أعرف».

ووقفت برهة متجمدًا من الألم، ثم قلت: «من فضلك حاول ذلك على أية حال».

قال الرجل: «حسنًا، سوف أسرع».

استمع النسر بهدوء للحوار وهو ينقل نظره بيني وبين الرجل.. الآن رأيت أنه قد فهم كل شيء، فطار إلى أعلى ثم التف لكسب قوة دفع كافية ثم دفع منقاره بعمق في فمي مثل الرمح.. تراجعت متهاويًا شاعرًا بالخلاص، فقد كان هو قد غرق- بلا فرصة في النجاة - في دمي الذي ملأ فيّ كل الأعماق وفاض فوق كل الضفاف.

***

جراتشوس الصياد

على جدار رصيف الميناء جلس ولدان يلعبان النرد، رجل يقرأ جريدة على درجات نصب تذكاري في ظل البطل شاهر سيفه، فتاة عند البئر تملأ دلوها بالماء، بائع فاكهة يرقد بجانب بضاعته ناظرًا إلى البحيرة. في أعماق حانة، من خلال أبواب مفتوحة وثقوب النوافذ يمكن رؤية رجلين يشربان الخمر.

صاحب الحانة كان جالسًا إلى طاولة في المقدمة وهو ينعس، سفينة طافت بهدوء كما لو كانت تُحمل فوق الماء إلى الميناء الصغير، إلى البر صعد رجل يرتدي معطفًا أزرق وحلَّ الحبال من الحلقات.

رجلان آخران يرتديان حلتين داكنتين بأزرار فضية حملا محفة خلف الربان، وبدا أن شخصًا كان يستلقي بها تحت وشاح حرير كبير مزين بالأزهار.

لم ينتبه أحد للوافدين على رصيف الميناء، حتى عندما وضعا المحفة انتظارًا للربان الذي كان لا يزال منشغلًا بالحبال، لم يقترب أحد منهما، ولم يسألهما أحد، ولم ينظر إليهما أحد عن كثب.

وقد أُوقف الربان من قبل امرأة مع طفل على صدرها وقد ظهرت على متن السفينة بشعرها الطليق.

ثم جاء مشيرًا إلى منزل من طابقين بلون مائل إلى الصفرة قائم بحذاء الماء بجهة اليسار، فرفع الحمالان المحفة واجتازا بها بوابة منخفضة مكونة من أعمدة رفيعة.

فتح صبي صغير نافذة، ورأى الجمع يختفي داخل المنزل فأغلق النافذة ثانية على عجل. وأغلقت كذلك البوابة التي تم تضفيرها بدقة من خشب البلوط الأسود.

هبط سرب من الحمام كان يطير حول برج الجرس أمام المنزل. كأن طعامه قد حفظ في المنزل، تجمع الحمام أمام البوابة. طارت إحداها إلى الطابق الأول ونقرت على زجاج النافذة. كانت طيورًا ذات ألوان زاهية، حسنة المنظر، مفعمة بالحيوية.

ألقت إليها المرأة من المحفة كمية كبيرة من الحبوب، فالتقطتها ثم طارت إلى

المرأة. رجل يرتدي قبعة أسطوانية معلقًا شارة حداد قدم من أحد الشوارع الضيقة شديدة الانحدار المفضية إلى المرفأ.

نظر حوله باهتمام، كان كل شيء يكدر صفوه، انقبض وجهه لمنظر شاذ بأحد الأركان. على درج النصب التذكاري كان قشر ثمار لفاكهة، أزاحها بعصاه عند مروره بها.

طرق باب الحانة، وفي نفس الوقت أخذ القبعة في يده اليمنى بالقفاز الأسود. فُتح الباب على الفور، انتظم خمسون ولدًا صغيرًا مصطفين في الممر الطويل وهم ينحنون.

نزل الربان الدرج وحيًا الرجل وقاده إلى الأعلى، وفي الطابق الأول دار حول فناء محاط بشرفات رشيقة بسيطة البناء. صعد كلاهما إلى غرفة كبيرة باردة بالجزء الخلفي من المنزل حيث لا يوجد أي منزل مقابله، بل جدار صخري عارٍ رمادي أسود، بينما كان الصبيان يدخلون بعدهما على مسافة بعيدة.

كان الحمالان منشغلين بوضع بعض الشموع الطويلة على رأس المحفة وإشعالها، لكن لم ينتج عن هذا ضوء ما، فقط تبدت الظلال شحيحة على الجدران، كانت هي التي تختفي وتومض حرفيًا.

كان الوشاح قد أزيح عن المحفة. فظهر هناك رجل ملقى بشعر ولحية متشابكين بشدة، وبشرة سوداء، يشبه الصياد. استلقى بلا حراك، لا يتنفس على ما يبدو، وعيناه مغمضتان، لكن الظواهر تشير فقط إلى أنه قد يكون ميتًا.

ذهب السيد إلى التابوت، ووضع يده على جبين الرجل الراقد هناك، ثم جثا على ركبتيه وصلّى. طلب الربان من الحمالين مغادرة الغرفة، فخرجا وطردا الأولاد الذين تجمعوا في الخارج، وأغلقوا الباب.

كما بدا لم يكتف السيد بهذا الصمت، فنظر إلى الربان الذي فهم وغادر عبر باب جانبي إلى الغرفة المجاورة. فتح رجل المحفة عينيه على الفور وتوجه إلى السيد بوجه تعلوه ابتسامة واجمة وقال: «من أنت؟»

دون مزيد من الدهشة، نهض السيد من ركوعه وأجاب: «أنا عمدة ريفا».

أومأ رجل المحفة، وأشار بذراع واهنة إلى مقعد، وبعد أن قبل العمدة دعوته، قال: «كنت أعرف ذلك، سيدي العمدة، لكني كنت دائمًا ما أنسى للوهلة الأولى كل شيء. فاسترجع كل شيء ليصير الحال أفضل. فمن الأفضل أن أسأل حتى لو كنت أعرف كل شيء، ربما تعلم أيضًا أنني الصياد جراشوس».

قال العمدة: «يقينًا».

«لقد أُبلغت بحضورك الليلة، وقد كنا استغرقنا في النوم. وفي منتصف الليل تقريبًا، نادتني زوجتي: «سالفاتور» - هذا هو اسمي - انظر إلى الحمامة على النافذة.

Telegram:@mbooks90

لقد كانت حمامة حقًا، ولكنها بحجم الديك.

طارت لتقترب من أذني وقالت: غدًا سيأتي الصياد الميت جراشوس، فاستقبله باسم المدينة. أومأ الصياد برأسه ومر بطرف لسانه بين شفتيه وقال: «نعم، لقد طار الحمام قبلي، لكن هل تعتقد، سيدي العمدة، أنه يجب أن أبقى في ريفا؟»

أجاب العمدة: «لا يمكنني قول ذلك بعد».

قال الصياد: «هل أنت ميت؟»

«نعم، كما ترون»

- منذ سنوات عديدة، لابد أنها كانت عديدة للغاية، سقطت من فوق صخرة في شفارتسفالد - غابة في ألمانيا - بينما كنت أطارد ظبيًا فصرت ميتًا منذ ذلك الحين.

فقال العمدة: «لكنك على قيد الحياة أيضًا».

قال الصياد: «إلى حدٍّ ما، أنا أعيش أيضًا. لقد انحرف قارب موتي عن وجهته، وقد دارت الدفة في اتجاه خاطئ، وفي لحظة فقد فيها الربان الانتباه، في لحظة انشغلت فيها بموطني الجميل، لم أدر بالضبط ما حدث، كل ما أدركته أنني صرت إلى الأرض وأن قاربي يبحر منذ ذلك الحين في مياه الأرض. هكذا صرت أنا، من أردت أن أعيش في الجبال فقط، إذا بي أسافر بعد موتي عبر جميع دول العالم».

قطب العمدة جبهته وسأل: «أو ليس لك نصيب في الآخرة؟»

أجاب الصياد: «أنا موجود دائمًا على الدرجة الكبيرة المفضية إلى أعلى. أجول على هذه البسطة العريضة اللامتناهية، مرةً لأعلى، مرةً لأسفل، مرةً لليمين، مرةً لليسار، دائمًا في حالة حركة».

وقد صار الصياد فراشة، لا تضحك من ذلك

فقال العمدة محتجًا: «أنا لا أضحك».

فقال الصياد: «عين العقل».

إني دائمًا في حالة حركة، ولكن إن بلغت الحد الأقصى وأضيئت لي البوابة في الأعلى، استيقظت على زورقي القديم العالق في مجرى مائي أرضي قاحل.

الخطأ الأساسي في موتي السابق كان يتربص بي في قمرتي.

كانت جوليا - زوجة الربان - قرعت الباب وجاءتني بشراب الصباح، الشراب الوطني للبلد الذي كنا نبحر على ساحله.

كنت مستلقيًا على مضجع خشبي، ولم يكن من دواعي سروري أن أنظر إلى - كفني المتسخ، وشعري ولحيتي بلونهما الرمادي والأسود يختلطان على نحو لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض، وعلى ساقي غطاء نسائي كبير من الحرير بأهداب طويلة ومزينًا بزهور.

وعند رأسي كانت شمعة كنسية مضاءة، وعلى الحائط أمامي صورة صغيرة، على ما يبدو لرجل من البوشمان(2) يصوب نحوي حربة ويحتمي قدر الإمكان بدرع بنقوش رائعة.

لقد صادفت بعض اللوحات الغبية على متن السفن، لكن هذه كانت واحدة من أكثرها غباءً. وفيما عدا ذلك كان قفصي الخشبي خاليًا تمامًا، من خلال فتحة بالجدار الجانبي انسل هواء الليل الدافئ الجنوبي، وأنا أسمع الماء يرتطم بقاربي

القديم.

كنت أرقد هنا منذ أن كنت لا أزال جراتشوس الصياد الحي، أطارد ظبيًا بموطني في شفارتسفالد ثم أسقط. كان كل شيء على ما يرام إلى أن طاردته، فسقطت، نزفت حتى الموت في هوة عميقة وكان من المفترض أن يحملني هذا القارب ميتًا إلى الحياة الآخرة.

ما زلت أتذكر مدى سعادتي إذ تمددت هناك على مضجع خشبي لأول مرة. لم تسمع الجبال مني قط مثل هذا الغناء مثل هذه الجدران الأربعة التي كانت حينذاك لا تزال مدغشة.

كنت أحب الحياة وأحببت أن أموت قبل أن أطأ متن القارب رميت سعيدًا بممسحة البندقية البالية، والحقيبة، وبندقية الصيد التي كنت أحملها دائمًا بفخر، وتدثرت كفني كما تفعل فتاة بفستان زفاف. كنت مسلقيًا انتظر، ثم وقع الحادث».

فقال العمدة وهو يرفع يده مستعيذًا: «مصير سيئ لا يد لك فيه».

قال الصياد: «لست ملامًا على ذلك على الإطلاق؟ فقد تم تعييني كصياد في غابة شفارتسفالد حيث كانت الذئاب لا تزال موجودة حينذاك. كنت أتربص، أطلق النار، أضرب، أسلخ الجلد، فهل هذا ذنب؟ بل كان عملًا مباركًا، وكنت أدعى الصياد العظيم في غابة شفارتسفالد، فهل هذا ذنب؟»

فقال العمدة: «لست مؤهلًا للفصل في هذا الأمر، لكن لا يبدو لي أنا أيضًا أن ليس في هذا ذنبًا، ولكن على من يقع اللوم؟.

قال الصياد: «الربان».

لن يقرأ أحد ما أكتبه هنا، ولن يأتي أحد لمساعدتي؛ فإن كان الواجب مساعدتي، فلتظل كل أبواب المنازل كافة مغلقة، جميع النوافذ مغلقة، ويرقد الجميع في الفراش ورؤوسهم تحت الغطاء، وتصير الأرض كلها مأوى ليليًا.

إن لهذا معنى منطقيًا لأن لا أحد يعلم بي، وإذا كان يعلم بي فلن يعرف أين كنت،

وإذا عرف مكاني فلن يعرف كيف يحتفظ بي هناك، لا يعرف كيف يساعدني. إن فكرة الرغبة في مساعدتي هي مرض يجب أن يُعالَج في الفراش.

وأنا أعلم ذلك ولذا لا أصرخ طالبًا النجدة حتى في اللحظات التي أفقد فيها السيطرة على نفسى كعادتي، حتى إن ألحت عليّ هذه الفكرة كما هو الحال الآن.

لكن يكفي أن أتخلص من مثل هذه الأفكار إن نظرت حولي وتصورت مكاني فقد – أزعم إني سكنت هنا منذ قرون.

فقال العمدة: «أمر غريب، غريب. والآن أنت تنوي البقاء عندنا في ريفا»؟.

قال الصياد مبتسمًا: «أنا لا أخطط لذلك»، وللحد من وقع التهكم وضع يده على ركبة العمدة.

«أنا هنا، ولا أعرف أكثر من ذلك، ولا أستطيع فعل المزيد، فقاربي بلا دفة وهو يبحر بالريح التي تهب في أكثر مناطق الموت انخفاضًا».

***

فارس الدلو

استهلك الفحم كله فصار الدلو فارغًا وصارت المجرفة بلا معنى، والموقد صار باردًا. وقد خيم الصقيع على الغرفة، وأمام النافذة أشجار جمدت في الصقيع، السماء صارت درعًا فضيًا تصد طالب المساعدة منها.

يجب أن أحصل على الفحم، لا يجب أن أتجمد حتى الموت. موقد لا يرحم ورائي، وكذلك هي السماء أمامي، ونتيجة لذلك يجب أن أركض بشدة بين هذا وذاك وفي المنتصف أطلب المساعدة من تاجر الفحم.

لكنه كان رافضًا لطلب مألوف، وعليّ أن أثبت له بدقة شديدة أنه ليس لديّ ذرة فحم متبقية وأنه يقع مني موقع الشمس في السماء.

كان يجب أن آتيه مثل متسول لاهث من الجوع ليلفظ أنفاسه الأخيرة على عتبة الباب، ولذا تقرر طاهية السادة أن تسكب عليه تفل القهوة الأخيرة؛

لذلك كان لابد أن يصب غضبه عليّ، ولكن في ضوء وصية: «لا تقتل».

كان عليّ أن ألقي بمجرفة ممتلئة في الدلو، فكان لابد أن يحسم هذا رحلتي؛ لذلك قمت بامتطاء الدلو لأقوده. وكفارس الدلو وضعت يدي على المقبض ممسكًا باللجام البسيط، مستديرًا لأهبط الدرج بشق الأنفس؛ ولكن في الأسفل ارتفع دلوي، رائعًا، رائعًا. جِمالٌ راقدة على الأرض، لا يقل عنها جمالًا وهي تنتفض تحت عصا الحادي.

خلال الزقاق المتجمد أخذت أهبط بخطى منتظمة. وكثيرًا ما كنت أرتفع إلى مستوى الطوابق الأولى، فلم أهبط قط إلى مستوى الأمامي وأنا أحوم عاليًا بشكل غير عادي أمام قبو التاجر المقبب حيث يتكور هو إلى طاولته الصغيرة ويكتب، وقد فتح الباب للتخلص من الحرارة الزائدة.

أي تاجر الفحم «بفعل البرد هتفت بصوت أجوف، مغلفًا بسحب من الدخان المنبعث من أنفاسي» من فضلك، تاجر الفحم، أعطني بعض الفحم. إن دلوي فارغ إلى حد أنني أستطيع ركوبه، هل يمكنك فعل ذلك من فضلك، سأدفع المقابل في

أسرع وقت ممكن». وضع التاجر يده على أذنه.

«هل ما أسمعه هو حقيقي؟»

سأل التاجر ملتفتًا إلى زوجته التي تحيك على المقعد

«هل ما أسمعه صحيح؟ هل هناك زبائن».

«لا أسمع أي شيء».

قالت المرأة وهي تتنفس بهدوء من فوق إبر الحياكة، مستمتعةً بتدفئة ظهرها.

هتفتْ: «نعم حقًا، هذا هو أنا، زبون قديم وَفيٌ لكنى لا أملك شيئًا الآن».

فقال التاجر: «يا امرأة، هناك شخص ما، لا يمكنني أن أكون مخطئًا، يجب أن يكون زبونًا قديمًا جدًا يعرف كيف يخاطب قلبي».

«ما بك يا رجل؟».

هكذا قالت المرأة وهي تستريح للحظة وتضم ما تشغله إلى صدرها: «لا أحد هناك، الشارع خالٍ، كل زبائننا أخذوا ما يكفيهم، فبوسعنا إغلاق المحل لأيام لنستريح».

«لكني هنا جالس على الدلو» هكذا هتفت ودموع بلا مشاعر من البرد تحجب عيني، وتابعت: «من فضلك انظر، سوف تكتشفني في الحال. إني أطلب مجرفة ممتلئة. فإن منحتنى اثنتين جعلتني أشعر بسعادة غامرة.

قد تم بالفعل تزويد العملاء الآخرين كافة. أوه، لقد سمعت قرقعة الدلو.

فقال التاجر: «إني آتٍ».

وشرع يغالب صعود درج القبو، إلا أن المرأة لحقت به، ممسكة بذراعه قائلة:

«فلتبق أنت، دع عنك عنادك، فسوف أصعد. ولتذكر سعالك الحاد مساء اليوم، لكنك من أجل صفقة حتى لو كانت مجرد وهم، فإنك تنسى زوجتك وطفلك وتضحي برئتيك، أنا ذاهبة».

«أخبريه بكل الأصناف الموجودة في المتجر، وسوف أبلغك بأسعارها».

فقالت المرأة: «حسنًا»، ثم صعدت إلى الزقاق. فرأتني بالطبع على الفور، فهتفت: «سيدتي تاجرة الفحم، تحية تقدير واحترام، ليس سوى مجرفة من فحم هنا في الدلو، سأمضى بها بنفسي، مجرفة من أسوأ نوع. بالطبع سأدفع لك ثمنها كاملًا، لكن ليس على الفور، ليس على الفور».

يا له من رنين تلك الكلمات «ليس على الفور» وكم هي مربكة عندما تختلط بجرس المساء الذي يمكن سماعه توًا من برج الكنيسة القريب.

«فماذا يريد؟» هكذا صاح التاجر.

ردت المرأة قائلة: «لا شيء، ليس هناك شيء. إني لا أرى شيئًا، لا أسمع شيئًا. إنها دقات الساعة السادسة لنغلق المتجر. البرد قاس، فقد يكون أمامنا الكثير من العمل غدًا».

لا ترى شيئًا ولا تسمع شيئًا، لكنها حلت رباط تنورتها محاولة مطاردتي بمئزرها. للأسف نجحت في ذلك. إن دلوي يمتلك جميع مزايا خيل السبق، لكنه يفتقر إلى صلابة المقاومة، فهو خفيف للغاية إلى حد أن مئزر المرأة يطيح به.

«أيتها الشريرة» صحت بها، بينما كانت تتجه هي إلى المتجر، تضرب الهواء بيدها، حانقة بعض الشيء وراضية بعض الشيء.

«أيتها الشريرة، طلبت مجرفة من أردأ نوع ولم تعطها لي».

فكان أن تسلقت مناطق جبال الجليد لتضيع نفسي للأبد.

***

تقرير لأكاديمية

السادة المحترمين بالأكاديمية، يشرفني أن تطلبوا مني تقديم تقرير إلى الأكاديمية عن حياتي السابقة كقرد، لكنى في هذا الشأن لا يمكنني للأسف الامتثال للطلب.

ما يقرب من خمس سنوات تفصلني عن حياة القردة، وهو زمن يعتبر فترة وجيزة، إن تم حسابه بالأيام، ولكن اجتيازه كان بلا نهاية، كما حدث لي أنا، كنت مصحوبًا في بعض الأحيان بأشخاص ممتازين، ونصائح، وتشجيع وموسيقى أوركسترا، ولكني عامةً كنت وحيدًا لأن كل من رافقنى حافظ على بعده عني. سعيًا للبقاء في الصورة. كان هذا الإنجاز مستحيلًا لو إني كنت تشبثت بعناد بأصولي وذكريات صبايّ.

كان التخلي عن أي عناد هو الأولوية القصوى التي حددتها لنفسي؛ أنا القرد الحر، أخضعت نفسي لهذا القيد، ونتيجة لذلك ازدادت ذاكرتي انغلاقًا.

فلو أن العودة، إن شاء الناس هذا، أتيحت لي في البداية من خلال البوابة كلها التي شيدتها السماء فوق الأرض والتي أخذت تزداد انخفاضًا وضيقًا في الوقت الذي تسارع فيه تطوري قدمًا، لكنت شعرت براحة أكبر وانتماء أعظم لعالم البشر. بعد أن هدأت العاصفة التي هبت عليّ من الماضي التي لم تعد اليوم سوى تيار هواء يبرد كعبي، والثقب البعيد الذي تهب من خلاله والذي أتيت أنا من خلاله ذات مرة، أصبح صغيرًا حتى لو أننى امتلكت القوة والإرادة للوصول إليه، فسيكون عليّ أن أتخلص حتى من جلدي لعبوره.

صراحةً، فمهما كان حبي لاختيار صور لهذه الأحوال، أقول بصراحة: إن مرحلة القرد، أيها السادة، إن كان لكم شيء من هذا القبيل في ماضيكم، لا يمكن أن يكون بعيدًا عنكم أكثر من مرحلتي كقرد. فكل من يمشي هنا على الأرض يشعر بدغدغة في كعبه: سواء كان شمبانزي صغيرًا أو أخيل كبيرًا.

ومع ذلك، فإني في إطار هذا المعنى المحدود للغاية قد أكون قادرًا على الرد على طلبكم، وأنا في الواقع أفعل ذلك بسرور بالغ.

كان أول شيء تعلمته هو: المصافحة؛ فالمصافحة إعلان للانفتاح . الآن، اليوم بعدما بلغت قمة مسيرتي، فإنه يمكنني أن أضيف الكلمة الصريحة إلى تلك المصافحة الأولى.

إن ما طُلِب منى لن يضيف إلى الأكاديمية شيئًا جوهريًا جديدًا وسيكون أقل بكثير

مما طُلب مني وما لا يمكنني قوله بأقوى إرادة لدى – على كل حال فإن هذا سوف يوضح التوجه العام الذي اعتمد عليه قرد سابق للولوج إلى عالم البشر وترسيخ وجوده هناك.

لكنني يقينًا لن أكون قادرًا على قول الشيء التافه، التالي، إن لم أكن موقنًا تمامًا من نفسي ولم يتم ترسيخ موقفي الذي لا يتزعزع في جميع المراحل المتنوعة الكبيرة للعالم المتحضر:

إني أنتمي إلى شاطئ الذهب(3). ولابد من الرجوع إلى تقارير أجنبية عن كيفية أسري. لقد كانت فرقة الصيد العاملة لحساب شركة هاجنبك – وعامةً، فمنذ هذه الأيام حتى الآن كنت تجرعت العديد من زجاجات النبيذ الأحمر الجيد مع قائد هذه الفرقة – كانت الفرقة رابضة في الأدغال على الضفاف، فلما ركضت مساءً مع القطيع إلى حوض الماء، إذا بالفرقة تطلق النار، فكنت أنا الوحيد الذي أصيب. أصابتني طلقتان؛ واحدة في الخد كانت بسيطة، لكنها خلَّفت ندبةً حمراء كبيرة منزوعة الشعر لتسجل اسمى القرد «بيتر الأحمر» وهو اسم مقزز مختَرَع غير صحيح على الإطلاق كأننى لا أختلف عن «بيتر» حيوان القرد الشهير المروض إلا بالبقعة الحمراء على الخد.

كان هذا ملاحظة عابرة، أما الطلقة الثانية فقد أصابتني أسفل الخصر، كانت إصابة خطيرة، وقد تسببت في أنني ما زلت أعرج قليلًا حتى اليوم، وكنت قد قرأت مؤخرًا في مقال لواحد من عشرة آلاف كلاب النباح التي أُطلقت عليّ في الصحف:

أنه لم يتم قمع طبيعتي كقرد تمامًا، والدليل على ذلك أنه عندما يأتيني زائرون

فإنني أفضل خلع سروالي لإظهار موضع نفاذ تلك الطلقة.

فيجب أن يقصف كل إصبع على حدة من يد هذا الشخص. فبوسعي أنا أن أخلع سروالي أمام من شئت؛ فليس هناك أي شيء سوى فراء معتنى به وندبة من .. - دعنا نختار كلمة بعينها تؤدي لغرض معين، ولكن لا ينبغي أن يساء فهمها – .. ندبة من أثر طلقة خبيثة.

كل شيء واضح، فليس هناك ما يمكن إخفاؤه، فإن كان الأمر يتعلق بالحقيقة، فإن كل من يتمتع بأفق واسع سوف يتخلى عن أرفع آداب اللياقة. ففي المقابل سيكون من المؤكد أن هذا الكاتب سوف يكتسب سمعة مختلفة، إن هو خلع سرواله أمام زواره، ولسوف أعتبر عدم إقدامه على فعل ذلك علامة على التعقل.

ولكن بعد ذلك فليتفضل بأن يدعني وشأني، بعد تلك الطلقات استيقظت - وهنا تعود إليّ ذاكرتي تدريجيًا - في قفص في الطابق الأوسط من باخرة هاجنبك.

لم يكن قفصًا بقضبان رباعي الجدران، بل كان قد تم شد الثلاثة جدران إلى صندوق ليشكل الصندوق الجدار الرابع، كان كل شيء منخفضًا جدًا إلى حد أنه لا يسمح لي بالوقوف منتصبًا وضيقًا جدًا فلا أستطيع الجلوس.

لذلك جثوت على ركبتين منثنيتين مرتعشتين، ولأنني ربما لم أرغب في رؤية أي شخص في البداية وأردت فقط أن أقبع في الظلام، توجهت إلى الصندوق بينما القضبان تقطع جسدي من الخلف.

اعتقد البعض أنه من المفيد الحفاظ على الحيوانات البرية بهذه الطريقة في البداية، والآن، بناءً على تجربتي، فإنه لا يمكنني إنكار أن هذا هو نهج فكر البشر بالفعل، لكنني لم أفكر هكذا حينذاك.

لأول مرة في حياتي لم يكن لي منفذ، على الأقل لم يمكنني المضي للأمام؛ فقد كان الصندوق أمامي مباشرة، واللوح متصل بقوة باللوح الآخر. صحيح أنه كانت هناك فجوة بطول الألواح، فلما اكتشفتها لأول مرة احتفيت بها بعواء الجهل السعيد، لكن هذه الفجوة لم تكن تتسع بما يكفي للسماح لذيلي بالمرور من خلالها ولا يمكن

توسيعها بكل ما أوتي القرد من قوة.

وكما قيل لي لاحقًا إنني أحدثت بعض الضوضاء على نحو غير مألوف، حتى اعتقد البعض أننى أشرفت على الموت، ولو أنني نجحت في اجتياز الفترة الحرجة الأولى سأكون قابلًا جدًا للترويض. وقد تجاوزت تلك المرحلة، فكان أول ما انشغلت به في حياتي الجديدة: نشيج مكتوم، بحث مرير عن البراغيث، لعق جوز الهند بضجر، ضرب جدار الصندوق بجمجمتي، إخراج اللسان لشخص يقترب منى.

لكن من كل هذا، اعتراني شعور واحد فقط: لا منفذ.

بالطبع، يمكنني فقط تسجيل ما شعرت به كقرد في ذلك الوقت بكلام البشر، ولذلك أسجله، ولكن حتى لو لم يعد بوسعي الوصول إلى حقيقة القرد القديم، فإنها تكمن على الأقل في وصفي لها ولا شك في ذلك.

كان لدي في الماضى الكثير من المخارج والآن لم يعد هناك شيء من ذلك. كنت عالقًا. حتى لو صرت مُسمَّرًا بمكاني، ما تضاءلت حريتي في الحركة، فلماذا؟.

فإن شعرت بحكة بين أصابع قدميك، فلن تتعرف على سبب هذا، وإن ضغطت مؤخرتك على القضبان حتى تكاد تقسمك إلى قسمين، فلن تجد السبب. لم يكن لدي أي مخرج، لكن كان عليّ أن أجده، لأنني لا أستطيع العيش بدونه.

ولو بقيت دائمًا ملازمًا لجدار الصندوق هذا؛ كنت لأموت حتمًا. لكن شركة هاجنبك لا ترى القردة إلا بين جدران الصندوق، هكذا توقفت عن أن أكون قردًا.

مسار أفكار واضح جميل تفتق عن بطني على نحو ما، لأن القردة تفكر ببطنها، وأنا أخشى ألا يُفهَم ما أقصده بالضبط بالمخرج، وأنا أستخدم الكلمة بمعناها المألوف والأكمل. فأنا لا أقول الحرية عمدًا، لا أعني هذا الشعور الرائع بالحرية من جميع الجوانب. كقرد، ربما كنت أعرف ذلك، وقد قابلت أشخاصًا يتوقون إليها.

أما بالنسبة لي، فأنا لم أطلب الحرية في ذلك الوقت أو الآن. إلى جانب أن الناس غالبًا ما يخدعون أنفسهم بالحرية، وكما أن الحرية هي من أسمى المشاعر، كذلك فإن الخداع المناسب يعد كذلك من أسمى المشاعر.

قبل ظهوري في عرض منوعات كنت أرى غالبًا بعض الفنانين يلهون بأرجوحة بالسقف.

كانوا يتمايلون، يتأرجحون، يقفزون، يتعلقون بأذرع بعضهم البعض، كان أحدهم يحمل بأسنانه الآخر من شعره. وهذه أيضًا هي حرية الإنسان كما اعتقدت «حركة القدرة على التحكم».

فيالسخرية الطبيعة المقدسة.

لن يصمد أي شيء أمام ضحك القردة لهذا المشهد. لا، لا أريد الحرية. طريقة واحدة فقط للخروج؛ يمين، يسار، أينما كان الاتجاه، لم أتقدم بأي مطالب أخرى.

فإن كان المخرج وهمًا، فإن مطلبه كان هينًا، ولن يكون الخداع أكبر.

تقدم، تقدم.. فقط لا تقف ساكنًا وذراعاك مرفوعتان، تضغطان على جدار الصندوق.

اليوم أرى بوضوح، لم يكن بإمكاني الفرار دون أقوى سكينة روحية. وبالفعل، ربما أدين بكل ما أصبحت عليه للسكينة التي ملكت عليّ كياني بعد الأيام القليلة الأولى هناك في السفينة.

لكن ربما كنت مدينًا بالسكينة للناس على متن السفينة. إنهم أناس طيبون رغم كل شيء، وما زالت السعادة تغمرني لما أتذكر صوت خطواتهم الثقيلة التي تردد صداها في ذلك الوقت أثناء نعاسي. كان أولئك قد اعتادوا معالجة كافة الأمور ببطء شديد.

فإذا أراد شخص ما فرك عينيه، كان يرفع يده مثل ثقل معلق. كانت نكاتهم فظة لكنها صادقة، وضحكهم كان ممزوجًا دائمًا بسعال يبدو خطيرًا ولكنه لا ينم عن شيء خطر.

كان لديهم دائمًا شيء ما في أفواههم ليبصقوه ولم يهتموا بمكان بصقه، كانوا يشكون دائمًا من أن براغيثي قفزت إليهم.

لكنهم لم يغضبوا مني بسبب هذا؛ فقد عرفوا أن البراغيث تترعرع في فرائي وأن

القفز طبيعة البراغيث، فارتضوا ذلك.

في بعض الأحيان عندما يكونون في وقت الراحة، كان بعضهم يجلس حولي في نصف دائرة، يتحدثون بالكاد، بل كانوا يزومون لبعضهم البعض، يدخنون، يتمددون فوق الصناديق، يضربون ركبتيهم إن أتيت أنا أدنى حركة.

وبين الحين والآخر كان أحدهم يمسك عصا ويدغدغني حيث كان يطيب لي. لكن إذا وجهت لي اليوم دعوة للقيام برحلة على هذه السفينة، فسوف أرفض الدعوة يقينًا، لكنني موقن أيضًا تمامًا أن سبب هذا ليست ذكريات قبيحة فقط يمكن أن اتألق بها هناك على ظهر السفينة.

لقد كانت السكينة التي اكتسبتها برفقة هؤلاء الأشخاص هي بالمقام الأول ما منعتني من محاولة الهروب، ومن منظور اليوم يبدو لي أنني كنت أظن على الأقل أنني سأضطر إلى إيجاد مخرج إن كنت أرغب في العيش، ولكن الوصول إلى هذا المخرج لن يكون بالفرار.

لم أعد أعرف إن كان الهروب ممكنًا، لكنني أعتقد أن القرد يجب أن يكون دائمًا قادرًا على الهروب. بأسناني الحالية، يجب أن أكون حذرًا عند كسر ثمار الجوز، لكني كنت سأنجح حينذاك في قرض قفل الباب بمرور الوقت.

لم أفعل ذلك، وما الذي كان يمكن أن أجنيه؟ فما أن أطل برأسي، حتى يُقبض علي مرة أخرى وأحبس في قفص أسوأ، ودون أن يلاحظ أحد كان بإمكاني الهروب إلى حيوانات الأخرى، مثل الأفاعي العملاقة التي كانت أمامي، وتتردد أنفاسي بين أحضانها، أو كنت سأتمكن حتى من التسلل إلى سطح السفينة والقفز من فوق القارب، ثم كنت سأترنح لفترة من الوقت في المحيط وأغرق.

***

أفعال اليأس

لم أحسب ذلك بطريقة إنسانية، لكنني تحت تأثير محيطي تصرفت كما لو كنت قد حسبت هكذا. لكني لم أحسب، بل راقبت بهدوء تام. رأيت هؤلاء الناس يروحون ويغدون دائمًا، هي الوجوه نفسها، الحركات نفسها، فكان يبدو لي غالبًا كما لو كانوا واحدًا فقط.

لذلك مضى الشخص أو هؤلاء الناس دون مضايقة. لاح لي هدف نبيل في الأفق، لم يعدني هؤلاء بأني إذا أصبحت مثلهم فإن القضبان سوف يتم رفعها، فمثل هذه الوعود بتحقيق ما يبدو مستحيلًا لا يمكن التصريح بها.

ولكن إذا تم الوفاء بالوعود، فإن الوعود تظهر بعد ذلك بالضبط حيث كنت تبحث عنها سابقًا دون جدوى. الآن لم يكن هناك شيء في هؤلاء الناس بحد ذاتهم ليجذبني كثيرًا.

لو كنت مؤيدًا للحرية التي ذكرتها، لكنت يقينًا أفضل المحيط على هذا المخرج الذي بدا لي في عيون هؤلاء الناس القاتمة.

على أية حال، كنت ألاحظهم من وقت طويل، قبل أن أفكر في مثل هذه الأمور، في الواقع دفعتني الملاحظات المتراكمة أولًا في اتجاه معين. فقد كان من السهل جدًا تقليد الناس.

استطعت البصق في الأيام الأولى، ثم بصقنا في وجوه بعضنا البعض. كان الاختلاف الوحيد هو أنني بعد ذلك ألعق وجهي، وهم لا يفعلون ذلك.

سرعان ما دخنت البايب مثل رجل عجوز، عندما وضعت إبهامي في وعاء البايب، تصايح كل من على سطح السفينة الصغير؛ فأنا لم أكن قد فهمت لفترة طويلة الفرق بين البايب الفارغ والمحشو.

كانت معظم مشاكلي مع زجاجة العرقي. فكانت رائحته تعذبني، ولقد أجبرت نفسي بكل ما أوتيت على ذلك من قوة لكن أسابيع مرت قبل أن أتغلب على ذلك.

والغريب أن الناس أخذوا هذه الصراعات الداخلية على محمل الجد أكثر من أي شيء آخر بداخلي، وأنا لا أميز بين الناس حتى في ذاكرتي، ولكن كان هناك شخص كان يعاود دومًا، بمفرده أو مع رفاقه، نهارًا وليلًا، في مختلف الأوقات؛ ليقف أمامي بالزجاجة ليلقنني دروسًا.

لم يفهمني، فأراد حل لغز كياني. ففتح الزجاجة ببطء ثم نظر إليّ ليرى ما إذا كنت أفهم، وأعترف أني كنت أنظر إليه دائمًا باهتمام شديد متعجل؛ فلن يجد أي معلم بشري مثل هذا التلميذ الإنساني على الأرض كلها.

بعدما فتح الزجاجة رفعها إلى فمه، فتابعته حتى النهاية، أما هو فهز رأسه راضيًا عني وهو يضع الزجاجة على شفتيه.

أما أنا المفتون بالإدراك التدريجي، فصرت أهرش سعيدًا طولًا وعرضًا حيثما اتفق؛ فاعترته النشوة ووضع الزجاجة على فمه ليحتسي رشفة.

فأخذت أنظف جسدي في قفصي متلهفًا يائسًا لمحاكاته، مما منحه رضا كبيرًا مرة أخرى؛ حينئذ أبعد الزجاجة وأخذ يؤرجحها مرة أخرى ليشرب منها مبالغًا في تلقيني الدرس، ليفرغها في جرعة واحدة.

أما أنا، فقد أرهقتني الرغبة الشديدة فلم يعد بإمكاني المتابعة وتعلقت منهكًا بالقضبان بينما أنهى هو الدرس النظري وهو يتحسس بطنه مبتسمًا.

حينئذ بدأ التمرين العملي. ألم أكن منهكًا جدًا من التلقين النظري؟ حسنًا، كنت منهكًا للغاية. فهذا قدري، ومع ذلك وبأقصى ما استطعت من قوة وصلت إلى الزجاجة وفتحتها وأنا أرتعش، فأمدني هذا النجاح بقوى جديدة تدريجيًا.

رفعت الزجاجة التي لا يمكن تمييزها عن الأصل متناولًا إياها وألقيت بها باشمئزاز، فرغم أنها كانت فارغة ولم يعد هناك سوى الرائحة تعبقها، قمت برميها على الأرض باشمئزاز.

ورغم حزن معلمي وحزني الكبير، فإني لم أصالحه ولم أصالح نفسي من خلال عدم نسيان تحسس بطني مبتسمًا أثناء إطاحتي بالزجاجة.

في كثير من الأحيان كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يتم بها الدروس، وتكريمًا لأستاذي الذي لم يغضب مني، كان في بعض الأحيان يضع البايب المشتعل على جلدي بمكان لا أستطيع الوصول إليه حتى يبدأ في التوهج، لكنه بعد ذلك كان يطفئه بيده الضخمة الطيبة مرة أخرى.

لم يكن يغضب مني، لقد فهم أننا نناضل على نفس الجبهة ضد طبيعة القرد وكان نصيبي من هذا هو الجزء الأصعب. ويا له من فوز بالنسبة له وبالنسبة لي، عندما كنت ذات مساء وأمام جمهور كبير - ربما كان هناك حفل، حيث عزف جرامافون وكان هناك ضابط يمضب بين الناس - عندما أمسكت، دون أن يلاحظ أحد، أمام قفصي، بطريق الخطأ بزجاجة عرقي تركت هناك على سبيل الخطأ.

باهتمام متزايد من الحاضرين، فتحتها كما تعلمت، ووضعتها على فمي دون تردد، بفم منبسط، كشارب محترف، أفرغتها في حلقى المرجرج وأنا أقلّب عينيّ. ولم أطح بها كرجل بائس بل كفنان، ورغم إني نسيت أن أتحسس بطني لكني بالمقابل ولأنني لم أستطع أن آتي شيئًا آخر ولأنني وقعت تحت ضغط، ولأن نفسي وسوست لي، هتفت باختصار بصوت بشري «هاللو»، وانتقل الهتاف وصداه إلى مجتمع الحضور.

- «ألا سمعتم، إنه يتكلم».

شعرت كأن هذا قبلة على جميع أنحاء جسدي المتعرق.

أكرر: لم يكن هناك ما يغريني بتقليد الناس، وقد قلدتهم لأنني كنت أبحث عن مخرج، ولم يكن لدي سبب آخر.

ولم أحصد الكثير من هذا النصر. خانني صوتي مرة أخرى على الفور، فلم يظهر لشهور، وازداد نفوري من زجاجة العرقي. لكن توجهي كان قد تم تحديده للأبد.

عندما تم تسليمي في هامبورغ إلى مدربي الأول، أدركت أن هناك خيارين، كانا المتاحين أمامي: إما حديقة الحيوان أو عروض المنوعات ولم أتردد.

فقلت لنفسي: افعل كل ما في وسعك للمشاركة في مسرح المنوعات؛ هذا هو

المخرج، فحديقة الحيوان هي مجرد قفص شبكي جديد؛ إذا دخلته، فستضيع. وتعلمت أيها السادة.. أوه، المرء يتعلم عندما يضطر إلى ذلك؛ يتعلم المرء عندما يسهى لمخرج؛ يتعلم المرء بلا رحمة. يقوم المرء على نفسه بالسياط ؛ يمزق المرء نفسه إربًا عند أدنى مقاومة.

هرولت طبيعة القرد لتهجرني، تندفع مسرعة، حتى أن معلمي الأول كاد أن يصير قردًا وسرعان ما اضطر إلى التخلي عن التدريس ونقل إلى المصحة، ولحسن الحظ، سرعان ما خرج مرة أخرى. لكنني كنت قد استهلكت العديد من المعلمين، بل عديد من المعلمين في آنٍ واحد.

عندما أصبحت أكثر ثقة في قدراتي وصار الجمهور يتابع تقدمي وبدأ مستقبلي يتألق صرت أختار المدرسين بنفسي وجعلتهم في خمس غرف متتالية، وتعلمت منهم جميعًا في نفس الوقت من خلال القفز باستمرار من من غرفة إلى أخرى.

هذا التقدم، واختراق أشعة المعرفة من جميع الجهات إلى دماغي اليقظة، إني لا أنكر أن هذا قد أسعدني.

لكنني أعترف أيضًا، أنني لم أبالغ في تقدير هذا، ولا حتى في ذاك الوقت، وحتى الآن.

فمن خلال جهد لم يتكرر على وجه الأرض، قد وصلت إلى مستوى التعليم الأوروبي المتوسط.

ربما لا يكون هذا شيئًا في حد ذاته، لكن قيمته كانت بقدر ما ساعدني على الخروج من القفص ومنحني هذا المخرج الخاص، هذا المخرج البشري.

هناك مقولة ألمانية ممتازة: اضرب خلال الأدغال؛ فعلت ذلك، ضربت خلال الأدغال. لم يكن أمامي خيار آخر، فكان الشرط دائمًا ألا أختار الحرية.

إذا راجعت تجربة تطوري وهدفي السابق منها، أجد نفسي غير غاضب وغير راضٍ. يداي في جيبي البنطال، وزجاجة النبيذ على المنضدة مضطجعًا بعض الشيء، جالسًا بعض الشيء على كرسي هزاز متطلعًا من النافذة.

فإن جاء زائر استقبلته بما يليق، مدير أعمالي جالس في غرفة الانتظار؛ أدقُّ الجرس، يأتي ويسمع ما سأقوله. في المساء، هناك عرض تقريبًا دائمًا، وبالكاد أحقق مزيدًا من نجاح.

عندما أعود إلى المنزل في وقت متأخر من الليل من المآدب، من المنتديات العلمية، من اللقاءات الدافئة، كانت تنتظرني أنثى شمبانزي شبه مدربة فأستمتع بها على طريقة القردة.

وبالنهار لا أسعى لرؤيتها؛ لأن جنون الحيوان المرتبك المروض يتبدى في نظرتها، أنا فقط أعرف ذلك ولا يمكنني تحمله. على أية حال، فقد نلت بشكل عام ما أردت تحقيقه.

قد يقول البعض إن الأمر لم يكن يستحق العناء. علاوة على ذلك، فأنا لا أريد حكم أي إنسان، أريد فقط نشر المعرفة، أنا أبلغكم فقط، أيها السادة بالأكاديمية.

***

زيارة إلى المنجم

كان كبار المهندسين معنا اليوم. كان هذا نوع من التكليف من الإدارة بمد أنفاق جديدة، وجاء المهندسون لأخذ القياسات الأولى.

كم هم شباب وكم هم مختلفون .. لقد ترعرعوا جميعًا في جو من الحرية، وقد بدت طبيعتهم المتحررة بوضوح في سن مبكرة.

أحدهم، ذو شعر أسود مفعم بالحيوية، يرسل نظراته إلى كل مكان. بينما شخص آخر يحمل مفكرة يقوم بتدوين ملاحظات أثناء سيره والنظر حوله والمقارنة، وتدوين الملاحظات.

وثالث يمشي منتصبًا ويداه في جيبي معطفه ليبدو كل شيء فيه مشدودًا، محافظًا على كبريائه، ومن خلال عض شفتيه المستمر يكشف عن شبابه نافد الصبر الذي لا يمكن قهره.

وهناك رابع يعطي للثالث تفسيرات لم يطلبها؛ أقصر منه، يركض بجانبه مثل الوسواس، يبدو رافعًا إصبعه السبابة دائمًا في الهواء، كأنه يشرح له سلسلة من كل ما يمكن رؤيته هناك.

شخص خامس، ربما يكون الأعلى رتبة، يمضي وحده؛ أحيانًا في المقدمة وأحيانًا في الخلف، والجماعة تضبط خطاها على خطوته، هو شاحب ضعيف. وقد أرهقت المسؤولية عينيه، وكثيرًا ما كان يضغط بيده على جبهته مفكرًا.

مشى السادس والسابع منحنين قليلًا، والرأس قريب من الرأس، والذراع بالذراع في حديث حميم، ولولا لم يكن هنا منجم الفحم الخاص بنا ومكان عملنا في النفق الأعمق، لاعتقدنا أن هؤلاء السادة النحفاء غير الملتحين منتفخي الأنف كانوا من شباب رجال الدين.

عادة ما يضحك أحدهم في نفسه بقرقرة كقطة، بينما الآخر الذي يبتسم أيضًا، يصدر الأمر منظمًا الإيقاع بيده الحرة.

إلى أي مدى كان هذان السيدان واثقين من عملهما، وما هي المكاسب التي يجب أن يحققاها بالفعل لمنجمنا رغم حداثة سنهما، وإلى أي مدى يمكن أن ينشغلا تمامًا بأمورهما الشخصية أو على الأقل بأمور لا تتعلق بالمهمة الحالية أثناء مثل هذا التفتيش المهم وتحت أعين رئيسهما.

أم هل أنهما من الممكن أن يدركا جيدًا ما هو ضروري رغم كل الضحك وعدم الاهتمام؟.. لا يكاد المرء يجرؤ على إصدار حكم محدد بشأن هؤلاء السادة. ومع ذلك، فمن ناحية أخرى، ليس هناك شك في أن الثامن، على سبيل المثال، هو الأكثر انخراطًا في الواقع بلا مقارنة، أكثر من جميع السادة الآخرين.

فكان عليه أن يلمس كل شيء ويطرق عليه بمطرقة صغيرة يسحبها من جيبه مرارًا ويعيدها لجيبه ثانية.

في بعض الأحيان، ورغم أناقة ملبسه كان يركع في القذارة ويدق على الأرض، ثم مرة أخرى وكان أثناء سيره يفعل ذلك أيضًا على الجدران أو السقف فوق رأسه حتى ظننا أن هناك كارثة.

إلا أنه قفز بعد ذلك وهو يهز جسده النحيف هزة بسيطة، ولم يكن ذلك سوى فحص قد أجراه للتو.. كنا نعتقد أننا على دراية بمنجمنا وأحجاره، لكن ما يبحث عنه هذا المهندس باستمرار هنا لم نفهمه.

شخص تاسع يدفع أمامه عربة شبيهة بعربة أطفال حمل فيها أجهزة القياس.

أجهزة ذات قيمة عالية، وضعت داخل طيات قطن رقيقة. كان من المفترض أن يدفع خادم ما هذه العربة، لكن لم يكن ليؤتمن عليها؛ فكان على المهندس أن يأتي ليفعل ذلك وهو ما أقدم عليه بسرور كما نرى.

ربما كان هذا الأحدث سنًا، وربما لا يفهم جميع الأجهزة حتى الآن، لكن نظرته دائمًا ما تكون عليها، وأحيانًا يكاد يخاطر بإصطدام العربة بالحائط. لكن كان هناك مهندس آخر يسير بجوار العربة ليحول دون ذلك ويبدو أنه يفهم المعدات من الألف إلى الياء ويبدو أنه الحارس الحقيقي لها.

بين الحين والآخر ودون إيقاف العربة كان يقوم بإخراج جزء من الأجهزة وينظر فيه، ويفكه أو يربطه، يهزه أو يدق عليه ويضعه على أذنه، وفي النهاية كان سائق العربة يتوقف مكانه في الغالب حتى يعيد المهندس بحرص إلى العربة الجهاز الصغير الذي بالكاد يمكن رؤيته من مسافة بعيدة. بدا هذا المهندس مستبدًا بعض الشيء، لكن فيما يخص الأجهزة فقط.

وقبل عشر خطوات من العربة وبإشارة إصبع دون كلام، كان علينا أن ننتحى جانبًا، حتى لو لم يكن هناك مكان يتيح لنا ذلك. وكان يسعى وراء هذين السيدين خادم لا يفعل شيئًا.. وكان السادة قد تخلوا عن كل غطرسة من فترة طويلة، وإن كان هذا بديهيًا لعلمهم الواسع فإن الخادم بدا على النقيض منهم يكاد ينفجر من فرط الغطرسة.. فكان يضع يدًا خلف ظهره والأخرى أمامه يمسك بها أزراره المذهَّبة أو القماش الناعم لحلته الفخمة ويهز رأسه تكرارًا إلى اليمين واليسار كما لو كنا نحييه وهو يرد، أو كما لو كان يفترض أنه رحَّب بنا، لكنه لم يمكنه من التحقق من ذلك من عليائه.

بالطبع نحن لا نحييه، لكن قد يعتقد المرء بعد النظر إليه أنه أمر مروع أن تكون مسخدمًا في إدارة المنجم.

و كنا نضحك من ورائه بالطبع، ولكن رغم أن حتى الصاعقة لا تستطيع أن تجعله يلتفت، فإنه ظل في تقديرنا شيء غير مفهوم.

لم يتم إنجاز الكثير من العمل اليوم. وكان التوقف عنه طويلًا جدًا؛ فمثل هذه الزيارة تلغي كل أفكار عن العمل.. كان من المغري للغاية أن ننظر إلى السادة وهم جميعًا يختفون في ظلام النفق التجريبي. كما أن نوبة عملنا كانت تقترب من نهايتها؛ فلن نشاهد عودة السادة بعد الآن.

***

طرق على باب قصر

كان الوقت صيفًا، يومًا حارًا. في طريقنا إلى المنزل مررت مع أختي ببوابة القصر. لا أعلم إن كنت أدق البوابة بدافع العبث أو لشرود الذهن، أو أنني هددت فقط بقبضة اليد أو لم أفعل شيئًا على الإطلاق. بدت مشارف القرية على بعد مائة خطوة أخرى على الطريق الزراعية نحو اليسار.

لم نكن نعرفها، لكن فور خروج الناس من أول منزل لوحوا لنا بإشارات ودٍ أو تحذير، كانوا خائفين، حتى أنهم انحنوا من الرعب. وقد أشاروا إلى القصر الذي مررنا به وذكّرونا بأول دقة على البوابة.

أصحاب القصر سيقاضوننا وسيبدأ التحقيق في الحال. كنت هادئًا للغاية وطمأنت أختي أيضًا. ربما لم تدق البوابة، وإن كانت فعلت ذلك فلن يستطيع أحد في أي مكان في العالم إثبات ذلك.

كما سعيت إلى أن أجعل الناس يفهموننا، فاستمعوا إليّ، لكنهم امتنعوا عن الحكم على ذلك. وقالوا فيما بعد إنه لن يتم اتهام أختي فحسب بل أنا كأخ كذلك.

أومأت بابتسامة، نظرنا جميعًا إلى القصر فيما كان الناس يتابعون سحابة من الدخان بعيدة منتظرين اللهب، وبالفعل سرعان ما رأينا فرسانًا يركضون نحو بوابة القصر المفتوحة على مصراعيها. ارتفع الغبار الذي غطى كل شيء، فيما عدا أطراف الرماح المشهرة التي كانت تومض.. وما إن اختفى الركب داخل القصر حتى رأيناه يتحول بخيوله ويشق طريقه إلينا. فدفعت أختي بعيدًا، لأسبر غور الأمر وحدى، لكنها أبت أن تتركني وحدي. قلت لها إن عليها أن تغير ملابسها على الأقل حتى تظهر أمام السادة بثوب أفضل.

أخيرًا أطاعت وشقت طريقها الطويل إلى المنزل. وهنا وصل الفرسان، وسألوا من علٍ عن أختي. فأجبت بشيء من الخوف بأنها ليست هنا في الوقت الحالي، لكنها ستأتي لاحقًا. فقابل أولئك الإجابة بلا مبالاة، وقد بدا أن الأمر الأكثر أهمية هو أنهم عثروا عليّ.

كان هناك بشكل أساسي رجلان؛ القاضي، وهو شاب مفعم بالحيوية، ومساعده الصامت الذي كان يُدعى أسمان، وقد طُلِب مني دخول غرفة ريفية.

ببطء ورأس تتأرجح ممسكًا بحمالات بنطالي تحركت تحت أعين السادة.

كنت أعتقد أن كلمة واحدة تكفيني أنا ساكن المدينة لتحريري بل وتكريمى من شعب الفلاحين هذا. لكن عندما تجاوزت عتبة الغرفة، قال القاضي الذي قفز إلى الأمام وكان ينتظرني بالفعل: «إني آسف لهذا الرجل».

ولكن لم يكن لدي أي شك في أنه يقصد ما حدث لي وليس ما سيحدث، بدت الغرفة كزنزانة سجن أكثر من كونها غرفة ريفية.

بلاطها من حجر كبير، معتمة، جدرانها عارية تمامًا، حلقة حديدية محاطة بسور في مكان ما، شيء في المنتصف كان يشبه مضجعًا خشبيًا أو شبيهًا بطاولة عمليات. هل يمكنني شم هواء آخر غير هواء السجن؟ هذا هو السؤال المهم، أو بالأحرى، إذا كان لا يزال لديّ احتمال أن يتم الافراج عني.

***

فنان الجوع

في العقود القليلة الماضية تراجع الاهتمام بفناني الجوع إلى حدّ كبير. بينما كان تنظيم مثل هذه العروض الكبيرة بمفردها في الماضى تلقى ما هى جديرة به، إلا أن هذا محال تمامًا اليوم، فقد اختلف الزمن.

في ذلك الوقت كانت المدينة كلها مشغولة بفنان الجوع، وكانت المشاركة تزداد من حفل جوع إلى حفل جوع آخر؛ فالجميع كان يريدون رؤية فنان الجوع مرة على الأقل في اليوم الواحد. وفي أيام لاحقة كان هناك رواد دائمون يقبعون لعدة أيام أمام قضبان القفص الصغير، كما كانت تنظم عروض ليلية؛ وذلك لزيادة التأثير من خلال المشاعل وفي أيام الجو الصحو، كان يُحمل القفص إلى الخارج في الهواء الطلق، والآن أصبح الأطفال خاصةً هم من يشهدون فنان الجوع ؛ بينما لم يكن ذلك في كثير من الأحيان سوى مزحة للكبار، شاركوا فيها من على سبيل الموضة، أما الأطفال فكانوا يشاهدون العرض بذهول، وأفواههم مفتوحة، ممسكين ببعضهم البعض من أجل الشعور بالطمأنينة، وهم ينظرونه شاحب اللون مرتديًا فانلة سوداء من التريكو، وقد برزت ضلوعه بشدة، كما كان يرفض المقاعد ليجلس على قش مبعثر، وكان يومئ برأسه بأدب، يبتسم بتوتر، مجيبًا على الأسئلة.

يمد ذراعه عبر القضبان ليشعر الناس بنحافته، لكن بعد ذلك ينطوي على نفسه تمامًا ثانيةً غير مبالٍ بأحد ولا حتى بدقات الساعة التي تهمه للغاية وهي قطعة الأثاث الوحيدة التي كانت بالقفص، فقط كان ينظر للأمام بعينين شبه مغمضين وبين حينٍ وآخر يرتشف الماء من كوبٍ صغير لترطيب شفتيه.

إضافةً إلى المتفرجين، كان هناك أيضًا حراس دائمون يتم انتقاؤهم من قبل الجمهور، والغريب في الأمر أن أولئك كانوا جزارين وكانوا عادة دائمًا ثلاثة في آنٍ واحد، مهمتهم مراقبة فنان الجوع ليل نهار حتى لا يتناول الطعام سرًا.

إلا أن هذا لم يكن سوى إجراء شكلي من أجل طمأنة الجمهور لأن العالمين ببواطن الأمور كانوا يعلمون جيدًا أن فنان الجوع لن يأكل أقل القليل أبدًا تحت أي ظرف ولا

حتى بالإكراه خلال فترة الجوع؛ فشرف فنه يمنعه عن هذا.

بالطبع، لم يستطع كل حارس فهم ذلك، فقد كانت هناك في بعض الأحيان مجموعات من الحراس الليليين يقومون بالحراسة بتراخٍ شديد، فيجلسون عمدًا بركن بعيد منغمسين في لعب الورق بنية إتاحة الفرصة لفنان الجوع للحصول على القليل من القوت لظنهم أنه ربما يحصل على شيء من الإمدادات سرًا.

لم يكن هناك شيء أكثر تعذيبًا لفنان الجوع من أولئك الحراس الذين يسببون إصابته بالاكتئاب. فهم يجعلون تجربته في الجوع أمرًا عسيرًا جدًا عليه، فكان يتغلب أحيانًا على ضعفه ويغني أثناء نوبة الحراسة هذه بقدر ما كان يطيق ذلك، ليظهر للناس مدى ظلمهم في الاشتباه به.

إلا أن هذا لم يساعده كثيرًا. فقد كان أولئك يتعجبون من قدرته على الأكل حتى أثناء الغناء، وكان هو يفضل الحراس الذين يجلسون بالقرب من القضبان ولا يكتفون بالإضاءة الليلية الخافتة للقاعة بل كانوا يضيئون المصابيح الكهربائية التي وضعها المتعهد تحت تصرفهم.

لم يكن الضوء الساطع يزعجه على الإطلاق فهو لا يستطيع النوم على الإطلاق وكان دائمًا قادرًا على أن يغيِّب وعيه بعض الشيء رغم أي إضاءة في أي ساعة حتى بقاعة مزدحمة صاخبة.

كان سعيدًا جدًا بقضاء الليل مع هؤلاء الحراس دون نوم على الإطلاق؛ وكان مستعدًا للمزاح معهم وإخبارهم بقصص من جولات حياته، ثم الاستماع إلى قصصهم، كان يفعل ذلك فقط لإبقائهم مستيقظين، ليبرهن لهم مرارًا أنه ليس لديه ما يأكله في القفص وأنه كان يتضور جوعًا كما لم يستطع أحد منهم فعله.

لكن أسعد لحظاته كانت عندما يحل الصباح ويقدَّم لهم فطورًا وفيرًا على حسابه، فيقبلون عليه بشهية رجال أصحاء بعد ليلة يقظة مرهقة.

بل إنه كان هناك من رأى في هذا الفطور تأثيرًا غير لائق على الحراس، إلا أن الأمر تجاوز ذلك، فإن سئل أولئك عما إذا كانوا يفضلون تولي المراقبة الليلية دون فطور،

فكانوا ينسحبون لكنهم يظلون متمسكين بشكوكهم.

كان هذا شبهة لا يمكن فصلها مطلقًا عن موضوع الجوع. ولم يكن بوسع أحد قضاء كل الأيام والليالي عند فنان الجوع إلا الحارس، لذلك لا يمكن لأحد أن يعرف من خلال تجربته الخاصة ما إذا كان الجوع حقًا يظل متواصلًا دون أن تشوبه شائبة؛

فقط فنان الجوع نفسه هو من كان بوسعه معرفة هذا، وبذا يكون هو وحده في الوقت نفسه المتفرج الراضي تمامًا عن جوعه.

إلا أنه كان هناك سبب آخر يجعله غير راضٍ؛ فربما لم يكن الجوع قد أضعفه إلى حد أن البعض يضطر إلى الابتعاد عن العرض آسفًا لأنه لم يتحمل رؤيته، لكن عدم رضائه عن نفسه كان هو سبب هزاله.

هو وحده من كان يعلم مدى سهولة الصبر على الجوع وهو الأمر الذي لم يعرفه أي عالم ببواطن الأمور آخر.

كان الجوع أسهل شيء في العالم، كما أنه لم يُبق هذا الأمر سرًا، لكن أحدًا لم يصدقه، ففي أفضل الأحوال كان البعض يعتبره متواضعًا، ولكن الأغلبية تعتبر ذلك من باب الدعاية أو تعتبره محتالًا كان من السهل تجويعه لأنه كان يعرف كيف يجعل الأمر سهلًا، ولديه من الجرأة أيضًا بأن يقر بنصف الحقيقة.

كان عليه أن يتقبل كل هذا، وهو ما اعتاد عليه على مر السنين، إلا أن عدم رضاه كان يزلزل أعماقه دائمًا، ولم يحدث قط أن مُنح هذه الشهادة، بعد أي مرحلة من مراحل الجوع - حتى يغادر القفص طواعية.

وكان المتعهد قد وضع حدًا أقصى لفترة الجوع بأربعين يومًا، ولم يسمح قط بفترة جوع أخرى بعد ذلك ولا حتى في المناطق الحضرية، وكان لهذا سبب وجيه.

فقد أظهرت تجربة مدة الأربعين يومًا أنه بزيادة الاعلانات تدريجيًا يمكن أن التأثير على زيادة اهتمام أهل المدينة أكثر وإلا غاب الجمهور بعد ذلك وقد أمكن إثبات تراجع إقبال الجمهور. بالطبع كان هناك اختلاف طفيف بين المدن والريف في هذا الصدد، لكن القاعدة كانت أن أربعين يومًا هي الحد الأقصى.

ثم يحدث في اليوم الأربعين أن يتم فتح باب القفص المحاط بالزهور، ويغص المسرح بالجمهور المتحمس، وتعزف فرقة عسكرية، ويدخل طبيبان القفص لإجراء الفحوص اللازمة على فنان الجوع، ويتم إعلان النتائج للقاعة من خلال مكبر صوت، وأخيرًا تجيء فتاتان، سعدتا لأنهما فازتا في القرعة من أجل اصطحاب فنان الجوع لبضع خطوات من القفص، حيث يتم تقديم وجبة صحية مختارة بعناية فوق طاولة صغيرة.

وفي تلك اللحظة كان فنان الجوع يبدى ممانعة دائمًا، ورغم أنه كان لا يزال يضع ذراعه الهزيلة طواعية في أيدي السيدتين الممدودتين، إلا أنه لم يرغب في النهوض. لماذا يتوقف الآن بعد أربعين يومًا؟ كان سيحتمل الجوع لفترة طويلة إلى أجل غير مسمى. لماذا الآن وهو قد بلغ أفضل درجات الجوع بل لم يكن بلغها بعد؟

لماذا يريدون أن يسلبوا منه شهرة مواصلة الجوع، ليس فقط لأن يصبح أعظم فنان جوع في كل العصور، وهو ما قد يكونه بالفعل، ولكن أيضًا ليتفوق على نفسه بما يتجاوز كل الحدود، فهو لم يشعر بأي حدود لقدرته على الجوع.

لماذا لم يكن لدى هذا الحشد الذي تظاهر بإعجابه كثيرًا سوى القليل من الصبر عليه؟ إذا كان بإمكانه تحمل الجوع أكثر، فلماذا لا يتحمله الجمهور؟ كان التعب قد حلَّ به فجلس على القش، وعليه الآن أن يهبَّ منتصبًا ويذهب إلى وجبة الطعام الذي أصابه بالغثيان في مخيلته فقط، وهو شعور قمعه بصعوبة فقط مراعاةً للسيدتين.

ورفع نظره إلى عيون السيدتين الودوتتين في الظاهر، القاسيتين في الواقع، وهز رأسًا ثقيلًا على عنق ضعيف. لكن بعد ذلك حدث ما يحدث دائمًا.

فقد جاء المتعهد ورفع ذراعيه بصمت - فالموسيقى تجعل التحدث محالًا - كما لو كان يدعو السماء لإلقاء نظرة على إنجازه هنا على القش، إنه هذا الشهيد المثير للشفقة، الذي كان بالفعل فنان الجوع بمعنى مختلف تمامًا.

وأمسك الخصر النحيف لفنان الجوع محاولًا إيهام الجمهور بالحذر المبالغ فيه

بمدى ضعف الشيء الذي يتعامل معه، وسلمه للسيدتين الشاحبتين – قبل ذلك هزه سرًا قليلا، حتى صار ساقًا، وجذع فنان الجوع تتأرجح بلا إرادة.

حينئذ تقبل فنان الجوع كل شيء. فهوى رأسه على صدره، كما لو كان قد تدحرج وظل هكذا لسبب غير مفهوم، كان جسده هزيلًا وقد ضغطت ساقاه بشدة على بعضهما البعض عند الركبتين بغريزة الحفاظ على الذات، لكن مع ذلك، كانتا تتحسسان الأرض كما لو لم تكن هي الحقيقية، فعليهما البحث عن الأرض الحقيقية.

وكان عبء الجسد كله، وإن كان صغيرًا جدًا، قد وقع على إحدى السيدتين، فطلبت العون لاهثةً - فلم يكن هذا هو تصورها عن هذا المهمة الفخرية – فبدأت بمدّ رقبتها قدر الإمكان حتى تحافظ على وجهها على الأقل بعيدًا عن فنان الجوع.

ولكن بعد هذا، لأنها لم تنجح في ذلك ولم تمد لها رفيقتها المنتشية يد العون، بل اكتفت بأن تتقدم مرتجفةً بيد فنان الجوع، هذه الحزمة الضئيلة من عظام، وتنفجر في البكاء وسط الضحك المنتشي بالقاعة، ليحل محلها خادم كان قد تم إعداده لذلك منذ فترة طويلة.

ثم جاء الطعام الذي همس به المتعهد إلى فنان الجوع شبه النائم، وسط حديث سعيد كان من المفترض أن يصرف الأنظار عن حالة فنان الجوع.

ثم تم تقديم نخب للجمهور، بدا كأن فنان الجوع هو من أوحى به للمتعهد، وقد دعمت الأوركسترا كل هذا بتحية كبيرة لينصرف الجمع، ولم يكن يحق لأحد أن يكون غير راضٍ عما رآه، لا أحد.. فقط فنان الجوع، فقط هو دائمًا.

هكذا عاش لسنوات عديدة مع فترات راحة صغيرة منتظمة، في بريق مجد ظاهري، مكرّمًا من العالم، رغم كل هذا كانت تسيطر عليه حالة اكتئاب، تزداد حدّةً بسبب أن لا أحد يأخذ هذا الأمر على محمل الجد.

فماذا يمكن أن يواسيه؟ ماذا بقي ليسعى وراءه؟ وإذا ظهر شخص ما؛ شخص ودود، أسف لحاله فشاء أن يشرح له أن سبب حزنه ربما كان الجوع، فقد يحدث، خاصة في مرحلة متقدمة من عروض الجوع، أن يرد فنان الجوع بنوبة غضب

ويأخذ كحيوان في هز القضبان فيرعب الجميع.

لكن كان لدى المتعهد وسيلة عقاب لمثل هذه الحالة، يسعد باستعمالها، فيعتذر لفنان الجوع أمام الجمهور المجتمع، ويعترف بأن الهياج الناجم عن الجوع، والذي لا يمكن لإنسان شبعان فهمه بسهولة، يمكن أن يكون عذرًا لسلوك فنان جوع.

ثم يُضَمَّن هذا الحديث شرحًا لزعم فنان الجوع، أنه يمكن أن يجوع لفترة أطول بكثير، ممتدحًا طموحه المتوثب، ونيته الطيبة، وإنكاره للذات؛ لكنه يحاول بعد ذلك دحض هذا التأكيد بما يكفي من خلال عرض الصور التي يتم بيعها في الوقت نفسه، فالصور تظهر فنان الجوع في اليوم الأربعين من الجوع راقدًا بالفراش يكاد يتلاشى من الإرهاق.

كان هذا تزييفًا لحقيقة مكشوفة، كان فنان الجوع يعرفه جيدًا وهو أمر كان يضايقه دائمًا كل مرة، كان أمرًا لا يحتمله.

أما تبعة التوقف المبكر لعرض الجوع فكانت تعرض هنا على أنها السبب، فقد كان من المستحيل محاربة هذا الجهل؛ عالم الجهل هذا.

كان يواصل الاستماع بشغف وحسن نية إلى المتعهد وهو ممسك بالقضبان، ولكن في كل مرة كانت تظهر فيها الصور كان يبتعد عن القضبان وينطوي على نفسه مرة أخرى قابعًا فوق القش متحسرًا، وهو ما يسمح للجمهور المطمئن أن يقترب ليشاهده.

فإذا ما تذكر المتفرجون مثل هذه المشاهد بعد بضع سنين، يصيرون غالبًا هم أنفسهم غير مفهومين.

لأنه في هذه الأثناء يكون التحول المذكور هو ما حدث. كان قد حدث تقريبًا فجأة، وقد تكون هناك أسباب أعمق، لكن من يهتم ببحثها.

على أية حال، فإنه ذات يوم يرى فنان الجوع المدلل أن جمهور الباحثين عن المتعة قد ابتعد عنه،.مفضلين التدفق على عروض أخرى.

ومرة أخرى، يجوب المتعهد مع الفنان نصف أوروبا ليرى ما إذا كان الاهتمام القديم ما زال نشطًا من حين لآخر؛ لكن بلا جدوى، كما لو كان هناك اتفاق سري على النفور من عروض الجوع في كل مكان.

في الواقع لم يكن لهذا أن يحدث فجأة، فالمرء يتذكر بأثر رجعي بأنه في تلك الأيام، في ثمل النجاحات، أنه لم ينتبه بما يكفي، ولم يكن في الأفق ما ينذر بذلك على نحو كافٍ، ولكن كان الأوان قد فات لفعل شيء حيال ذلك الآن.

كان من المؤكد أن الحظ سيوافي عروض جوع مرة أخرى، لكن ذلك لم يكن حينذاك يمثل عزاءً لمعاصري هذا لزمن. فماذا يجب أن يفعل فنان الجوع الآن؟

فهذا الذي شجعه الآلاف لم يستطع الظهور على منصات المعارض السنوية الصغيرة، ولم يكن تقدم عمر فنان الجوع فقط ما حال دون امتهان عمل آخر فحسب، بل كان الأهم أنه قد استسلم للجوع إلى حد التعصب.

لذلك ودع المتعهد رفيق المسيرة المهنية التي لا مثيل لها، وقَبِلَ العمل في سيرك كبير، ومن فرط حساسيته لم يطالع شروط العقد.

سيرك كبير بعدد لا يحصى من أشخاص وحيوانات وأجهزة يكمل بعضهم البعض، يمكن أن يوظف أي شخص في أى وقت، بما في ذلك فنان جوع، بأجر متواضع، بالطبع إلى جانب ذلك في هذه الحالة الخاصة لم يكن فنان الجوع نفسه هو من تم توظيفه إنما أيضًا توظيف اسمه الشهير القديم، نعم.. فنظرًا لتفرد هذا الفن الذي لا يتراجع مع تقدم العمر، فإنه لا يمكن للمرء حتى أن يقول إن فنانًا متقاعدًا لم يعد في ذروة قدرته يريد أن يلجأ إلى موضع هادئ بعيد في سيرك.

بل على النقيض من ذلك، فقد أكد فنان الجوع، وهو أمر يمكن تصديقه تمامًا، أن بوسعه تحمل الجوع كعهده السابق، بل إنه زعم، لو سمح له وهو ما وعُد به، أنه سيؤتي بما يدهش العالم، وهو زعمٌ أثار سخرية الخبراء، نظرًا لحكم الزمن وهو ما كان فنان الجوع قد نسيه من فرط حماسه.

ومع ذلك، لم يغفل فنان الجوع أساسًا الظروف الحقيقية واعتبر من المسلم به أنه

هو وقفصه لن يكونا في صدارة العروض، وإنما بالخارج في مكان يسهل الوصول إليه بالقرب من الإسطبلات وقد أحاطت بالقفص ملصقات كبيرة ملونة بألوان زاهية لتعلن عما يمكن رؤيته هناك.

فعندما يندفع الجمهور إلى الإسطبلات أثناء فترات الاستراحة من العرض لتفقد الحيوانات، كان من المحتم أن يمروا بفنان الجوع ويتوقفوا هناك قليلًا.

ربما كانوا سيظلون عند فنان الجوع لفترة أطول، إن لم يكن المتزاحمون في الممر الضيق قد فهموا أن توقفهم في طريق إلى الإسطبلات التي يتوقون إليها، كان سيجعل من التأمل الطويل والهادئ أمرًا مستحيلًا. وقد كان هذا أيضًا سبب ارتعاش فنان الجوع قبل أوقات الزيارة التي طالما تمناها بالطبع هدفًا لحياته.

في البداية كان لا يكاد يصبر حتى تحين فترات الراحة بين العروض، فبدا مسرورًا برؤية الجمهور المهرول، لكنه سرعان ما اقتنع بأن نية الأغلبية بلا استثناء كانت زيارة الإسطبل.

وهكذا لم يصمد وهمه الشخصي العنيد أمام هذه التجربة وهو الأمر الذي كان يعيه.

وكان هذا المنظر من بعيد هو الأجمل. لأنهم عندما كانوا يصلون إليه كان يدوي على الفور صراخ وسباب جماعات كانت تتشكل باستمرار، فقد كانت هذه الجماعات، هي التي شاءت مشاهدته، ليس عن وعي وإنما بدافع الهوى والتحدي - وهي التي سرعان ما أصبحت أكثر إيلامًا لفنان الجوع، كذلك كان حال الجماعات الأخرى التي كانت تسعى من البداية إلى الإسطبلات فقط.

فإذا مر الحشد الكبير تلاه آخرون ولم يكن هناك ما يعوق أولئك، بالطبع..عن التوقف حياله إن شاءوا ذلك، فإذا بهم يسارعون بخطوات واسعة دون أن يلووا على شيء من أجل الوصول إلى الحيوانات في الوقت المناسب.

وكان من نوادر ضربات الحظ أن يأتي أب مع أبنائه ليشير بإصبعه إلى فنان الجوع وهو يشرح تفصيلًا ما كان من حاله ويحكي عن السنوات السابقة عندما كان يشارك

في عروض شبيهة لكن كانت عروضًا رائعة على نحو لا مثيل لها.

ثم كان الأطفال، ولأنهم لم يتلقوا إعدادًا كافيًا من خلال المدرسة والحياة، فقد ظلوا غير مستوعبين – معنى الجوع - ولكن كان يلمع في عيونهم المتفحصة شيء يعاود مجددًا، قادمًا من زمن أكثر جمالًا.

فكان فنان الجوع يقول لنفسه أحيانًا، هل كان كل شيء سيتحسن قليلًا لو لم يكن موضعه قريبًا هكذا من الإسطبلات.

وكان هذا ما يسّر على الناس اختيار عدم ذكر أن الرائحة الكريهة الصادرة عن الإسطبلات، واضطراب الحيوانات ليلًا ونقل قطع اللحم النيئة للحيوانات الكاسرة وصياحها أثناء إطعامها هو أمر يؤذيه كثيرًا ويكدره دائمًا.

لكنه لم يجرؤ على أن يشكو للإدارة؛ فقد كان مدينًا للحيوانات على كل حال بجمهور الزوار الذين كان يمكن العثور بينهم بين حين وآخر على شخص ما نصيرٍ له، ومن يدري أين سيتم إخفاؤه إذا ما ذكّر الإدارة بوجوده، ليكون بالتالي، في الواقع مجرد عقبة في الطريق إلى الإسطبلات.

لقد صار عقبة بسيطة، عقبة أخذ شأنها يتضاءل بعدما اعتاد الناس في تلك الأيام على غرابة الرغبة في مشاهدة فنان الجوع، وكان هذا الاعتياد إرهاصًا لصدور الحكم عليه.

فليتضور جوعًا قدر استطاعته، وهو ما قد فعله، لكن لا شيء يمكن أن ينقذه بعد الآن .

فكان الجمهور يتجاوزه، ولو أنه حاول شرح فن الجوع لشخص ما، فلن يمكنه أن يفهمه إلا إذا شعر هذا الشخص بذلك.

أصبحت الملصقات الجميلة قذرة وغير مقروءة، ومزقت، ولم يخطر ببال أحد القيام باستبدالها. أما اللافتة التي كانت تسجل عدد أيام الجوع التي أنجزها، والتي كان يتم تجديدها بعناية كل يوم في البداية، فقد ظلت على حالها منذ فترة طويلة، لأنه بعد الأسابيع القليلة الأولى، سئِم الموظفون حتى من هذا العمل البسيط.

وهكذا استمر الفنان في الجوع، كما كان يحلم به ذات يوم، ونجح دون أي جهد، تمامًا كما تنبأ حينذاك، لكن لم يكن أحد يحصي الأيام، ولا أحد، ولا حتى فنان الجوع نفسه، كان يعلم مدى روعة هذا الإنجاز بالفعل، فتملك اليأس منه.

فإذا توقف أحد المتسكعين ذات مرة في هذا الوقت وسخر من الرقم القديم وتحدث عن الغش، فيكون ذلك أحمق كذبة في هذا السياق يمكن أن تخترعها اللامبالاة والحقد الفطري لأن فنان الجوع لم يغش، لقد عمل بأمانة، وأما العالم فكان هو من غشه في أجره.

لكن مرت أيام عديدة مرة أخرى، ليمضي هذا الحال أيضًا إلى نهايته.

وحدث أن لاحظ أحد الحراس القفص، فسأل الخدم عن إهمال هذا القفص المفيد ليتراكم القش الفاسد بداخله دون استغلال؛ فلم يعرف أحد حتى تذكر شخص ما من خلال جدول الأرقام فنانَ الجوع. فتم تقليب القش بقضبان فعثر على فنان الجوع فيه.

سأله المشرف: «هل ما زلت تجوع؟ فمتى تتوقف أخيرًا عن هذا؟»

فهمس فنان الجوع «فليسامحني الجميع».

فقط كان المشرف الذي وضع أذنه على القضبان، هو من فهمه.

قال المشرف وهو يضع إصبعه على جبهته ليدلل للموظفين على حالة فنان الجوع: «يقينًا، نحن نسامحك».

كنت أسعى دومًا لأن أنال إعجابكم بجوعى «هكذا قال فنان الجوع».

فقال المشرف: «ونحن أيضًا معجبون به».

قال فنان الجوع: «لا يجب أن تعجب به».

فقال المشرف: «حسنًا، إذن نحن لا نعجب به، لماذا لا نعجب به؟»

«لأنني أتضور جوعًا، ولا أستطيع فعل شيء آخر»، هكذا قال فنان الجوع.

قال المشرف: «انظر، لماذا لا تستطيع أن تفعل أي شيء آخر؟»

قال فنان الجوع:

«لأني».

هنا رفع رأسه الصغير قليلًا وهو يضم شفتيه كما لو كان يمهد لقبلة متحدثًا في أذن المشرف حتى لا يضيع شيء: «لأني لم أجد الطعام الذي أحبه. إذا كنت وجدته، صدقني، ما كنت لأحدث ضجة وأكلت حتى شبعت، مثلك ومثل أي شخص آخر».

كانت هذه الكلمات الأخيرة، ولكنه كان لا يزال يحمل في عينيه المنكسرتين القناعة الراسخة، وإن خلت من الفخار، بأنه سيواصل الجوع.

قال المشرف: «الآن أصدر الأوامر»، فدُفن فنان الجوع في القش. ولكن تم وضع فهد صغير في القفص.

لقد كان الاسترخاء ملموسًا حتى لأشد الحواس بلادة برؤية هذا الحيوان البري وهو يرمي بنفسه في مثل هذا القفص الكبير القاحل. فلم يكن ينقصه شيء. فالطعام الذي كان يحبه كان يحضره إليه الحراس دون تفكير بل حتى الحرية لم يبد أنه يفتقدها.

هذا الجسد النبيل المجهز بكل ما هو ضروري إلى حد قد يكون مفرطًا، بدا أيضًا أنه يحمل معه الحرية؛ يبدو أنه عالق في مكان ما في الأسنان، وخرجت بهجة الحياة من حلقه بمثل هذا التوهج القوي إلى حد أنه لم يكن من السهل على المتفرجين تحمله، لكنهم تغلبوا على بعضهم البعض، وتكدسوا حول القفص لا يريدون الابتعاد.

***

ورقة قديمة

بدا الأمر كأننا تراخينا كثيرًا في الدفاع عن وطننا. فحتى هذا الحين لم نلق بالًا إلى هذا لنواصل أعمالنا، إلا أننا شعرنا بالقلق إزاء الأحداث الأخيرة.

لدي ورشة صناعة أحذية بالساحة أمام القصر الإمبراطوري. فما أن فتحت متجري عند الفجر حتى رأيت مداخل جميع الأزقة المتجهة إلى هنا، وقد احتلها مسلحون. لكنهم ليسوا جنودنا، لكن بدوا أنهم بدوٌ من الشمال.

على نحو ما لم أفهمه كانوا قد دخلوا إلى العاصمة البعيدة للغاية عن الحدود، على أية حال، ها هم هنا، وبدا أن عددهم يزداد كل صباح. وهم يعسكرون في الهواء الطلق طبقًا لطبيعتهم التي تأنف سكنى البيوت.

وهم ينشغلون بشحذ السيوف والسهام والتدريب على ظهور الخيل. لقد صنعوا إسطبلًا حقيقيًا من هذا المكان الهادئ النظيف دائمًا، أما نحن فكنا نحاول أحيانًا الفرار من محالنا والتخلص على الأقل من أسوأ قمامة.

لكن فعلنا هذا صار يتراجع لأن هذا الجهد لم يكن مجديًا، إضافةً إلى أنه كان يعرضنا لخطر السقوط تحت الخيول الوحشية أو أن تصيبنا السياط بجراح، وكان الحوار مع البدو غير ممكن.

إنهم لا يعرفون لغتنا ولا يكاد يكون لديهم لغة خاصة بهم، فهم يتواصلون مع بعضهم البعض بطريقة مشابهة لطريقة العقعق(4). ومرارًا يمكنك سماع صراخ طيور العقعق هذه، أما أسلوب حياتنا فلا يفهمونه ولا يعرفون مرافق مدننا، كما لا يبالون بها.

ونتيجة لذلك، فإنهم أيضًا معادون لأي لغة إشارة. فقد ينخلع فكك وتخرج يداك من مفاصلك، لكنهم لا يفهمونك ولن يفهموك أبدًا.

وغالبا ما يبدون تجهمًا، ثم ينقلب بياض عيونهم ويتدفق زبد من أفواههم، لكنهم لا يقصدون بذلك قول شيء أو الاتيان بشيء مخيف؛ فهم يفعلون هذا لأنه أسلوبهم.

و ما يحتاجونه يأخذونه، لكن لا يمكن القول إنهم يستخدمون العنف. فقبل وصولهم، يكون عليك التنحي جانبًا لتترك كل شيء لهم، وقد أخذوا أيضًا بعضًا من أطيب حاجياتي التي كنت اختزنها.

لكن لا يمكنني الشكوى من ذلك مقارنةً، على سبيل المثال، بحال الجزار الذي ما أن يحضر بضاعته حتى يسلب منه كل شيء ليلتهمه البدو.

كما أن خيلهم تأكل اللحم. فغالبًا ما يرقد الفارس بجوار حصانه ويتغذى كلاهما على قطعة اللحم نفسها، كل طرف منهما من ناحية، أما الجزار الخائف فلا يجرؤ على التوقف عن شراء اللحوم.

لكننا تفهمنا ذلك، فصرنا نجمع المال وندعمه. فإذا لم يحصل البدو على اللحوم، فمن يدري ماذا يفكرون في فعله؛ فمن يدري ماذا يدبرون حتى وهم يأكلون اللحم كل يوم. اعتقد الجزار مؤخرًا أنه يمكن على الأقل أن يوفر على نفسه عناء الذبح، فأحضر في الصباح ثورًا حيًا.

فصار عليه ألا يكرر ذلك مرة أخرى، فقد استلقيت لساعة على الأرض في الطرف الخلفي من محلي وقمت بتكديس كل ملابسي والأغطية والوسائد فوقي، فقط حتى لا أسمع زئير الثور الذي قفز البدو عليه من كل جانب يمزقون بأسنانهم لحمه الساخن أشلاء.

كان الهدوء قد ساد لفترة طويلة قبل أن أجرؤ على الخروج؛ كانوا مثل سكارى حول برميل نبيذ يرقدون متململين حول بقايا الثور، عندها فقط ظننت أنني رأيت الإمبراطور نفسه في نافذة القصر. وهو الذي لا يدخل هذه الغرف الخارجية أبدًا، فهو يعيش فقط في الداخل؛ لكن هذه المرة كان يقف أو هكذا بدا لي عند إحدى النوافذ وهو ينظر برأس منكسة إلى ما يجري أمام قلعته. «كيف سيكون الحال؟» هكذا أخذنا جميعًا نتساءل».

إلى متى سنحتمل هذا العبء والعذاب؟.

لقد استدعى القصر الإمبراطوري البدو، لكنه لا يعرف كيف يطردهم مرة أخرى.

البوابة لا تزال مغلقة. أما الحرس الذي اعتاد الدخول والخروج بطريقة احتفالية، فقد ظل رابضًا خلف النوافذ ذات القضبان.

إن خلاص الوطن بيدنا نحن الحرفيين ورجال الأعمال. لكننا لسنا على قدر هذه المهمة؛ لم نتفاخر يومًا بأننا قادرون على ذلك، وقد يحدث سوء فهم يودي بنا.

***

طبيب الأرياف

أصابتني حيرة شديدة: رحلة ملحة كانت وشيكة؛ كان ينتظرني مريض في حالة حرجة في قرية على بعد عشرة أميال؛ كانت العواصف الثلجية قد غطت مساحة واسعة بيني وبينه. كانت لدي عربة خفيفة، ذات عجلات كبيرة، تناسب حال طرق بلادنا؛ ارتديت معطفي الفراء، في يدي حقيبة الأجهزة، كنت بالفعل في الفناء وعلى استعداد للذهاب، لكن الحصان لم يكن هناك. لقد هلك حصاني الليلة الماضية نتيجة الإجهاد في ذلك الشتاء الجليدي. كانت خادمتي تجري الآن في أنحاء القرية بحثًا عن حصان لتقترضه؛ لكنه كان أمرًا ميؤوسًا منه، وقد كنت أعرف ذلك، مع ازدياد كثافة الجليد قلت قدرتي على الحركة فوقفت هناك بلا هدف.

ظهرت الفتاة عند البوابة بمفردها، تلوح بالفانوس. بالطبع، فمن ذا يقرض حصانه لمثل هذه الرحلة الآن؟ عبرتُ الفناء مرة أخرى. لم أجد حلًا، مضيتُ شارد الذهن، معذبًا، ضربت بقدمي باب إسطبل الخنزير المتهالك الذي لم يستخدم من سنوات. فانفتح وظل مصرعاه يتخبطان، ليهب دفء ورائحة كمثل التي للخيول.

داخل الإسطبل أخذ مصباح يتمايل بحبلٍ بالسقف. كشف رجلٌ كان متكورًا في سقيفة منخفضة عن وجه بعينين زرقاوين وسأل وهو يزحف على أربع: «هل أعد العربة؟»

لم أعرف ماذا أقول، فانحنيت لأرى ما كان لا يزال في الإسطبل. وقفت الخادمة بجانبي وهي تقول: «إن المرء لا يدري بما يتوافر ببيته»، فضحك كلانا.

وما أن هتف الحوذي: «هلا أخي، هلا أختي».

إذا بجوادين قويين بمناكب عظيمة وقد ضما سيقانهما إلى بطنهما ونكسا مثل الجمال رأسيهما البديعتين، يقتحمان الواحد تلو الآخر بقوة جذعيهما فتحة الباب التي تكاد تتسع لأحدهما.

وقفا على الفور منتصبين، بسيقان طويلة وجسدين يتصاعد منهما البخار. قلت لها «فلتساعديه»، فسارعت الفتاة المتأهبة في تمرير عريش العربة إلى الحوذي.

ولكن ما إن أن دنت منه حتى أمسك الحوذي بها وهجم بوجهه على وجهها فصرخت ولاذت بي. وإذا بصفين من أسنانه قد تركتا أثرًا أحمر في خد الفتاة. فصرخت غاضبًا: «أيها البهيم، أتريد السوط؟» لكني سرعان ما أدركت أنه غريب؛ لا أعرف من أين أتى وأنه يساعدني عن طيب خاطر في ما امتنع عنه الآخرون. وكما لو كان يقرأ أفكاري فإنه لم يستاء من تهديدي، إنما التفت مرةً ناظرًا إليّ وهو منشغل بأمر الجوادين، ثم قال «اركب»، وبالفعل: كان كل شيء جاهزًا.

لم أكن قد امتطيت مثل هذه العربة الجميلة فصعدت إليها فرحًا وأنا أقول: «أنا من سيقود العربة فأنت لا تعرف الطريق». فقال: «بالتأكيد، فأنا لن أرافقك، فسوف أبقى مع روزا».

فصرخت روزا: «كلا».

وركضت إلى المنزل وقد استشعرت عن حق مصيرها المحتوم، سمعتُ صرير سلسلة الباب وهي تحلها، وكذلك سمعت صوت القفل وهو ينفتح، ورأيتها تسرع خلال الممر لتطفئ جميع أنوار الغرف حتى لا يمكن العثور عليها.

قلت للحوذي: «ستأتي معي، أو سأتخلى عن الرحلة مهما كان الأمر، فلن يخطر ببالي أن أقايضك بالفتاة مقابل الرحلة».

«انطلقا» هكذا صاح ثم صفق بيديه فانجرفت العربة كلوح من خشب في تيار، وإذا بي أسمع باب منزلي ينفجر ويتطاير شظايا من أثر اقتحام الحوذي، ثم صارت عيناي وأذناي وحواسي كافة يجتاحها نفس الأزيز ملحًا.

لكن للحظة واحدة فقط، كأن فناء بيت المريض قد انفتح أمام بوابة فناء بيتي، لأجد نفسي هناك بالفعل، وقد وقف الجوادان هناك ساكنين. توقف تساقط الجليد وسطع ضوء القمر في كل مكان، وهُرع والدا المريض إلى خارج المنزل تلاحقهما أخته.

كادوا يرفعوني من العربة، ولم ألتفت إلى حديثهم المضطرب.

في غرفة المريض كان الهواء بالكاد قابلًا للتنفس، وكان الدخان ينبعث من فرن

مهمل، كان عليّ أولًا أن أرى المريض ثم أفتح النافذة.

صبي نحيف لا يعاني من حمى، جسده ليس ببارد ولا دافئ بعيون زائغة، بدون قميص، نهض من تحت الغطاء متعلقًا برقبتي ليهمس في أذني:

«دكتور، دعني أموت».

لم يسمع أحد ما قاله فقد كان الوالدان ينحنيان في صمت بانتظار حكمي، وقد أحضرت الأخت كرسيًا لحقيبة يدي. فتحت الحقيبة وأخذت أبحث بين أجهزتي؛ بينما كان الصبي ما زال يتلمس طريقه إليّ من فراشه ليذكرني بطلبه.

أخذتُ ملقاطًا لأفحصه على ضوء الشموع، ثم تركته مرة أخرى.

فكرتُ مجدفًا «نعم، ففي مثل هذه الحالات تساعد الآلهة وترسل الحصان المفقود وتضيف إليه حصانًا ثانيًا من أجل تعجل الأمر، وتمنحني إمعانًا في الكرم حوذيًا».

الآن فقط تتبدى لي روزا مرة أخرى؛ فماذا أفعل، كيف أنقذها، كيف أخرجها من تحت هذا الحوذي وأنا على بعد عشرة أميال منها وليس بوسعي السيطرة على خيل عربتي؟.

هذا الخيل التي تخففت على نحو ما من وثاقها، لا أعرف كيف فتحت نافذتين من الخارج، وأطلّ كل منهما برأسه عبر نافذة ينظران إلى الرجل المريض دون أن يثنيهما عن ذلك صراخ الأسرة.

«سأعود على الفور».

هكذا فكرت، كما لو كانت الخيل تطلب مني الرحيل، لكنني تحاملت حتى أخذت الأخت معطفي الفراء بعدما ظنت أنه سيغشى عليّ بسبب الحرارة.

أعطاني كأسًا من الروم، وربت العجوز على كتفي مبررًا هذه الحميمية بعكوفي على رعاية ابنه. هززتُ رأسي لاعتقاد العجوز أن شعوري بالغثيان هو سبب رفضي احتساء الروم، أما الأم فأشارت إليّ نحو الفراش الواقفة عنده؛ فأطعتها ورقدت هناك، وبينما بلغ صهيل الخيل السقف، كنت أضع رأسي على صدر الصبي الذي

ارتجف تحت لحيتي المبللة.

تأكد حدسي؛ أن الصبي يتمتع بصحة جيدة ولا يعاني إلا من قلة تدفق الدم بعد أن أغدقت عليه الأم القلقة بالقهوة، لكنه يتمتع بصحة جيدة ويمكن دفعه خارج الفراش بلكزة واحدة.

لست مصلحًا للكون ولذا تركته راقدًا، فأنا موظف من قبل إدارة الحي وأؤدي واجبي حتى النهاية، حتى يبدو هذا قد تجاوز الحد. ورغم أجري المتدني إلا أنني كريم وأساعد الفقراء. لكن ما زال لزامًا عليّ إنقاذ روزا، لكن قد يكون الصبي على حق لأرغب أنا أيضًا في الموت، فماذا أفعل هنا في هذا الشتاء الذي لا نهاية له؟.

لقد نفق حصاني وليس هناك من يقرضني بديلًا له في القرية، فكان عليّ دفع عربتي بنفسي خارج الإسطبل. فإذا لم يتوفر لدي خيل بالصدفة، كنت سأضطر إلى استخدام الخنازير في قيادة العربة.

هكذا هو الحال. وأومأت برأسي للعائلة التي على دراية بذلك وإن عرفت فلن تصدق ذلك، فأما كتابة العلاج فأمر هين، وأما التفاهم مع الناس فهو الأمر الصعب.

حسنًا، ستنتهي زيارتي هذه، هكذا كنت استدعيت ثانيةً بلا داعٍ، وهو أمر اعتدت عليه، فالمنطقة بأكملها تعذبني بدق جرس الليل، لكن في هذه المرة كان عليّ أن أتخلى عن روزا، هذه الفتاة الجميلة التي عاشت في منزلي لسنوات، وبالكاد لاحظت هذه التضحية الجسيمة، فلا بد لي من إعادة ترتيب أفكاري حتى احتال فلا أمضى إلى هذه العائلة التي لا تستطيع إعادة روزا إليّ مهما فعلت.

لكن عندما أغلقت حقيبتي مشيرًا إلى معطفي الفراء، وقفت الأسرة معًا، الأب يتشمم كأس الروم بيده، وربما شعرت الأم بخيبة أمل تجاهي.

نعم، فماذا يتوقع الناس إذن؟.

عيون مغرورقة بالدموع وعض على الشفاه بينما تلوح الأخت بمنديل ملطخ بالدماء، ففي ظل ظروف معينة أكون أنا على استعداد للاعتراف بأن الصبي قد يكون مريضًا.

أمضي إليه، فيبتسم لي كأنني له أقوى حساء - أوه، الآن يصهل الحصانان كأن الصخب أمرًا لي من علٍ ليسير الفحص - والآن أرى: نعم، الصبي مريض.

فعلى جانبه الأيمن بمنطقة الخصر انفتح جرح في حجم كف اليد. وردي اللون في ظلال عديدة، داكن في الأعماق، فاتح على الحواف، كحبيبات رقيقة، تجمع الدم بنحو غير متساوٍ، كمنجم مكشوف. هكذا بدا لي من مسافة بعيدة، ولكن لما دنوت منه بدا لي أن الحال أكثر تعقيدًا، فمن يستطيع رؤية هذا دون أن يصدر صفيرًا هينًا؟.

ديدان في حجم وقوة إصبعي الخنصر، وردية بطبيعتها أو أنها صبغت بالدم تتلوى داخل الجرح، وقد ظهرت برؤوس بيضاء صغيرة وعديد من أرجل. أيها الفتى المسكين، لا يمكن مد يد العون إليك.

لقد وجدت جرحك العظيم، أنت ستموت جراء هذه الزهرة في جانبك. الأسرة سعيدة وهي تراني أعمل؛ الأخت تخبر الأم، الأم تخبر للأب، الأب يخبر ضيوفًا، من خلال الباب المفتوح مهتدين بنور القمر جاءوا على أطراف أصابعهم، وهم ينشرون أذرعهم لحفظ توازنهم.

«هل ستنقذني؟».

همس الصبي وهو ينشج باكيًا، وقد استغرقته معايشة هذا الجرح.

هكذا هم أهل المنطقة التي أسكنها دائمًا يطلبون من الطبيب أن يفعل المستحيل. لقد فقدوا الإيمان القديم، فبينما يجلس القس بالبيت وهو يمزق عباءته واحدةً تلو الأخرى، فإنه يجب على الطبيب أن يفعل كل شيء بيده الجراحية الدقيقة. حسنًا، كما هو شائع لديهم:

أنا لم أعرض نفسي، فإن كنت سوف استغَل لأغراض مقدسة، فأنا أسمح بأن يجرى عليّ ذلك أيضًا؛ فما أفضل من ذلك قد يبتغيه طبيب ريف عجوز سلبت منه خادمته.

فجاءوا.. العائلة وشيوخ القرية ونضوا عني ثيابي، بينما وقفت أمام المنزل جوقة المدرسة بقيادة المعلم وأخذت تغني لحنًا بسيطًا للغاية:

«اخلعوا ملابسه، فيشفي

وإن لم يشف فاقتلوه،

فهو ليس سوى طبيب، إنه ليس سوى طبيب».

ثم نُضت عني ثيابي وأنا أنظر بهدوء إلى الناس برأس مائل وأصابعي تخلل لحيتي، أنا متماسك تمامًا متفوقٌ على الجميع، وسأظل كذلك رغم أن ذلك لا يساعدني، لأنهم الآن سيمسكون برأسي وقدمي ويحملونني إلى الفراش.

بجانب الحائط، على جانب الجرح، وضعوني. ثم غادر الجميع الغرفة وأُغلق الباب وتوقف الغناء. غطت الغيوم القمر، الفراش دافئ حولي. تتمايل رأسا الخيل مثل الظلال من فتحات النوافذ.

سمعت في أذني: «أتعلم، ثقتي بك ضئيلة للغاية، وأنت سقطت بلا حول وليس سعيًا على قدميك. فبدلًا من مساعدتك لي تضيق عليّ فراش الموت، فكم أود أن أنزع عنك عينيك».

قلت: «صحيح إنه خزي، لكني أنا طبيب، فماذا علي أن أفعل؟ صدقني، لن يكون الأمر سهلًا بالنسبة لي أيضًا».

«فهل ارتضى هذا العذر؟ أوه، لا بد لي من ذلك. أنا دائمًا يجب أن أكون راضيًا. ولدت بجرح جميل، هذا كان كل ما زودت به».

قلت: «صديقي الشاب، خطؤك هو: أنه ليس لديك نظرة عامة، وأنا الذي خبرت كافة غرف المرضى في كل مكان، أخبرك إن جرحك ليس بهذا السوء. فقد نشأ عن ضربتي منجل بزاوية حادة، بينما يعرض الكثيرون جوانبهم وهم لا يكادون يسمعون صوت المنجل في الصقيع، ناهيك عن أنها تقترب منهم».

«هل هذا حق أم أنك تخدعني وأنا محموم؟»

«بل هو حق ولتأخذ كلمة شرف من طبيب حكومي معك إلى هناك» فأخذها وسكت.

ولكن حان الوقت الآن للتفكير في إنقاذي. كان الخيل لا يزال يقف كعهده في موضعه، وتم جمع ثيابي والمعطف الفراء والحقيبة بسرعة، فلم أرغب في التعطل لارتداء ملابسي؛ فإن أسرع الخيل على النحو الذي نقلني به إلى هنا فإني على نحو ما سوف انتقل من هذا السرير هنا إلى فراشي هناك.

انصاع الحصان منسحبًا من موضعه بالنافذة؛ رميت الصرة في العربة. لكن الفراء طار بعيدًا، لكن كُم المعطف علق بخطاف هناك. فكان أمرًا طيبًا بما يكفي، وامتطيت الحصان.

كانت السيور قد انفكت تقريبًا، فلم يعد الجوادان بالكاد متصلين ببعضهما البعض، والعربة تتبعنا بصعوبة، وجاء الفراء كأخر شيء في الجليد.

قلت: «انطلقا».

فلم يكن هناكِ ثمة انطلاق بل ببطء العجوز صرنا نعبر صحراء من جليد، ولوقتٍ طويل كانت تلاحقنا أغنية الأطفال الجديدة المضلة.

«ابتهجوا أيها المرضى،

لقد وُضِعَ الطبيب في فراشكم».

على هذا النحو لن أعود إلى بيتى أبدًا؛ ضاعت عيادتي المزدهرة، وقد سرقني خليفتي، ولكن دون جدوى لأنه لا يستطيع أن يحل محلي؛ الحوذي المقزز يزأر في بيتي. روزا ضحيته، هذا ما لا أبغي التفكير فيه.

عاريًا أتعرض لصقيع هذا العصر المحزن بعربة أرضية، خيل غير أرضي، أتخبط كعجوز على غير هدى. فرائي معلقٌ بالجزء الخلفي من العربة ولا أستطيع الوصول إليه، ولم يحرك أي من رعاع المرضى ساكنًا.

خدعت.. خدعت، إن اتبعت جرس الليل الخطأ، هو أمر لا يمكن إصلاحه أبدًا.

***

في مستعمرة العقاب

قال الضابط للرحالة: «إنه جهاز غريب»، وبنظرة إعجاب قام بمعاينة الجهاز الذي كان مألوفًا لديه.

من باب التأدب فقط بدا أن الرحالة قد قبل دعوة القائد الذي طلب منه حضور إعدام جندي أدين بالعصيان وإهانة رئيسه.

ربما لم يكن الاهتمام بهذا الإعدام كبيرًا جدًا في مستعمرة العقاب أيضًا. فهنا على الأقل في وادٍ صغير رملي عميق محاط بمنحدرات جرداء من كل جهة، فإلى جانب الضابط والرحالة لم يكن سوى الرجل المدان.

شخص ممل، واسع الفم، بشعر ووجه مهملين وجندي يحمل حلقة ثقيلة تنتهي بسلاسل صغيرة ومتصلة أيضًا ببعضها البعض عبر حلقات سلاسل أخرى، كان المحكوم عليه مقيدًا بها إلى كاحلي قدميه ومعصمي يديه وكذلك عنقه.

عامةً، بدا الرجل المدان مستسلمًا للغاية حتى أنه أعطى انطباعًا بأنه يمكن تركه يتجول بحرية على المنحدرات فإذا حانت لحظة إعدامه كان سيلبي بمجرد سماعه الصفير.

لم يبد الرحالة سوى قليل من اهتمام بالآلة، وكان يسير بخطى سريعة صعودًا وهبوطًا خلف الرجل المحكوم عليه، وبدا أنه غير مبالٍ تقريبًا، بينما كان الضابط يقوم بالإعدادات النهائية، فكان أحيانًا يزحف أسفل الآلة المثبتة في عمق الأرض وأحيانًا يتسلق سلمًا للوصول إلى أجزائها العليا لفحصها.

كان هذا العمل يمكن أن يُترك فعلًا لميكانيكي، لكن الضابط قام به بحماس كبير، سواء كان هو من محبي هذه الآلة أو لأسباب أخرى منعته أن يعهد بالقيام بالعمل لأي شخص آخر.

«الآن كل شيء جاهز».

هكذا صاح أخيرًا ونزل من السلم. كان مرهقًا للغاية وكان يتنفس بفم مفتوح عن

أخره، وقد وضع منديلين رقيقين خلف ياقة قميصه العسكري.

و بدلًا من السؤال عن الآلة، كما توقع الضابط، قال الرحالة: «هذا الزي الرسمي ثقيل للغاية بالنسبة للمناطق الاستوائية».

فقال الضابط وهو يغسل يديه من الزيت والشحوم في دلو من الماء: «يقينًا».

«لكنها تعنى الوطن، ولا نريد أن نفقد وطننا، لكن الآن ترى هذه الآلة».

أضاف على الفور وهو يجفف يديه بقطعة قماش مشيرًا إلى الآلة في الوقت نفسه:

«وحتى الآن لا يزال يتعين علينا القيام ببعض الأعمال اليدوية، ولكن من الآن فصاعدًا ستعمل الآلة ذاتيًا».

أومأ الرحالة برأسه وتبع الضابط الذي حاول أن يطمئن نفسه تجاه كل طارئ فقال: «هناك أعطال بالطبع، آمل ألا يحدث ذلك اليوم، لكن علينا أن نضعها في الحسبان، من المفترض أن تعمل الآلة لاثنتي عشرة ساعة، فإذا وقعت أعطال فإنها تكون بسيطة للغاية ويتم إصلاحها في الحال».

«ألا تريد الجلوس؟»

سأل أخيرًا وهو يسحب واحدًا من كومة كراسي مصنوعة من قضبان حديدية وعرضه على الرحالة الذي لم يستطع الرفض.

فجلس على حافة حفرة وألقى نظرة خاطفة إلى داخلها. لم تكن عميقةً جدًا، وكان على جانب من الحفرة تراب متخلف عن الحفر مكدس كجدار، وعلى الجانب الآخر كانت الآلة.

قال الضابط: «لا أعرف، ما إذا كان القائد قد شرح لك الآلة بالفعل».

فرد الرحالة بإشارة من يده، لم يكن الضابط بحاجة لشيء أفضل من هذا، فبوسعه الآن شرح الآلة بنفسه.

قال وهو يمسك بذراع إدارة الآلة الذي كان مستندًا إليه: «هذا الجهاز من اختراع

قائدنا السابق، لقد شاركت معه في المحاولات الأولى المبكرة كما شاركت في جميع الأعمال حتى النهاية».

ومع ذلك، فإن براءة الاختراع تعود إليه بالكامل، هل سمعت عن قائدنا السابق؟ لا؟ حسنًا، لا أدعي الكثير عندما أقول إن إنشاء مستعمرة العقاب بأكملها كان ثمرة عمله هو. نحن أصدقاؤه، كنا نعلم بالفعل عند وفاته أن مؤسسة المستعمرة كانت مكتفية ذاتيًا حتى أن خليفته، إذا كان لديه ألف خطة جديدة، لن يكون قادرًا على تغيير أي شيء مما سبق لسنوات عديدة في الأقل.

ولقد تحقق تنبؤنا أيضًا، وكان على القائد الجديد أن يعترف بذلك. إنه لأمر يؤسف له أنك لم تعرف القائد السابق، لكن .. - استدرك الضابط - إني أثرثر بينما آلته هنا أمامنا.

كما ترى، هي تتكون من ثلاثة أجزاء. ومع مرور الوقت اكتسب كل جزء من هذه الأجزاء اسمًا شائعًا. فالجزء السفلي يسمى السرير، والجزء العلوي يسمى الرسام، وهنا يسمى الجزء الأوسط العائم بالجرافة.

«جرافة؟».

هكذا سأل الرحالة الذي لم يكن قد أصغى باهتمام شديد، فقد كانت الشمس تسطع بشدة في الوادي الذي لا ظل به وكان من الصعب على المرء أن يركز أفكاره.

بدا له الضابط أكثر إثارة للإعجاب، فقد كان يرتدي سترة ضيقة شبيهة بالتشريفة، مثقلًا بالكتّافات، ومزدانًا بالشرائط وهو يشرح مهمته بشغف شديد، إضافةً إلى أنه بينما كان يتحدث، كان يواصل العبث بمفك بصامولة من حين لآخر.

وبدا الجندي في حالة مماثلة لحالة الرحالة. فقد غلَّ معصما يديه بالسلاسل ووضع إحدى يديه على بندقيته، وترك رأسه تتدلى على رقبته ولم يهتم بأي شيء.

ولم يفاجأ الرحالة بأن الضابط كان يتحدث الفرنسية ويقينًا لم يفهم الجندي ولا الرجل المدان الفرنسية. ومع ذلك، كان الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن المدان حاول مع ذلك متابعة شرح الضابط.

وبنوع من الإصرار الغافي كان يوجه نظره دائمًا حيث كان الضابط يشير، وعندما قاطع الرحالة الضابط بسؤال، نظر هو، وكذلك الضابط إلى الرحالة.

قال الضابط: «نعم.. الجرافة، الاسم مناسب». فقد تم ترتيب الإبر على هيئة جرافة، ويتم توجيه كل شيء مثل المجرفة، حتى لو كانت كلها بموضع واحد وبطريقة فنية أكثر.

عامة سوف تفهم هذا في الحال، سيتم وضع الرجل المحكوم عليه هنا على السرير - أريد أن أصف الآلة أولًا وبعد ذلك يتم تنفيذ الإجراءات. ستتمكن بعد ذلك من متابعتها بشكل أفضل. أيضًا، وقد تم شحذ ترس بالرسام شحذًا شديدًا ولذا فهو يصدر أزيزًا قويًا عند الحركة؛ فلا يمكننا حينئذ التفاهم تقريبًا. ولسوء الحظ كان من الصعب العثور على قطع غيار هنا. إذن ها هو السرير كما قلت، إنه مغطى بالكامل بطبقة من القطن؛ سوف تعلم الغرض من هذا لاحقًا. على هذا القطن سوف يوضع الرجل المحكوم على بطنه عاريًا بالطبع، وهذه السيور هنا لقيد اليدين وهنا للقدمين وهنا للرقبة. هنا على طرف السرير حيث، كما قلت يستلقي الرجل على وجهه أولًا، سدادة من اللباد يمكن التحكم فيها بسهولة لتنتقل مباشرة إلى فم الرجل.

«والغرض منها منع الصراخ وبلع اللسان. بالطبع يجب على الرجل أن يلتقم اللباد وإلا ستكسر رقبته بحزام العنق».

سأل الرحالة وهو يميل إلى الأمام: «أهذا قطن؟»

فقال الضابط مبتسمًا: «نعم، بالطبع، تحسسه بنفسك».

ثم أمسك بيد الرحالة وقادها فوق السرير، ثم أضاف: «إنه قطن مُعَدٌّ خصيصًا، ولهذا السبب يبدو أنه لا يمكن التعرف عليه؛ سأعود إلى الغرض منه لاحقًا».

كان الرحالة قد انجذب قليلًا إلى الآلة بالفعل، فنظر إليها واضعًا يده على عينيه للحماية من أشعة الشمس. لقد كان جهازًا كبيرًا، كان السرير والرسام من نفس الحجم وبدوا مثل صندوقين داكنين. وقد تم وضع الرسام على ارتفاع مترين فوق السرير وربط كليهما في الأركان بأربعة قضبان نحاسية تكاد تعكس أشعة الشمس.

وكانت الجرافة تدور على سير فولاذي بين الصندوقين.

أما الضابط الذي كان نادرًا ما لاحظ عدم اكتراث الرحالة في وقت سابق قد أدرك الاهتمام الذي بدا عليه الآن؛ لذلك توقف عن تفسيراته من أجل إعطاء الرحالة وقتًا للمراقبة دون إزعاج.

أما الرجل المحكوم عليه فأخذ يقلد الرحالة، ولأنه كان غير قادر على وضع يده على عينيه، صارت عيناه ترفان إلى أعلى.

«حسنًا، هنا يستلقى الرجل».

هكذا قال الرحالة مستندًا إلى الكرسي واضعًا ساقًا على الأخرى، فقال الضابط وهو يدفع قبعته للخلف قليلًا ويمرر يده على وجهه الساخن: «نعم، اسمعني، إن السرير والرسام يحتويان على بطارية كهربائية خاصة بهما، أما الأولى فلتشغيل السرير نفسه، والثانية يشغل المؤشر بها الجرافة. وما أن يتم ربط الرجل حتى يتم تحريك السرير. فيرتجف في تشنجات صغيرة وسريعة جدًا في نفس الوقت على الأجناب، وكذلك لأعلى ولأسفل. سترى أجهزة مماثلة في المصحات، فقط في حالة سريرنا فإن جميع الحركات تُحسب بدقة، ويجب أن يتم تنسيقها بدقة مع حركات المشط. لكن التنفيذ الفعلي للحكم متروك لهذه الجرافة».

سأل الرحالة: «وما منطوق الحكم؟». قال الضابط مُدهَشًا بعد أن عضَّ على شفته: «أنت لا تعرف ذلك أيضًا؟ سامحني إن كان شرحي غير مرتب، ألتمس منك المعذرة».

كان القائد هو من يقوم بالشرح، لكن القائد الجديد تخلى عن هذا الواجب الفخري. لكنه لم يخبر مثل هذا الزائر النبيل بشكل حكمنا، «هنا حاول الرحالة أن يتجنب المديح بكلتا يديه، لكن الضابط أصر على العبارة».

زائر رفيع المستوى لا يخبره أحد بصيغة حكمنا، إنه لأمر جديد.

كاد أن يتلفظ بسباب إلا أنه تماسك وقال فقط: «ولا تثريب عليّ إن لم يتم إخطاري. عامةً، أنا أفضل من يشرح أنواع أحكامنا، لأنني أحمل هنا - خبط على جيب صدره - الرسومات التي خطها القائد السابق بيده».

تساءل الرحالة: «رسومات بيد القائد نفسه؟ هل جمع بين كل شيء؟ هل كان جنديًا، قاضيًا، مصممًا، كيميائيًا، رسامًا؟»

«بلى».

قال الضابط وهو يومئ برأسه بنظرة ثابتة متدبرة، ثم فحص يديه فبدوتا غير نظيفتين بما يكفي للمس الرسومات؛ فذهب إلى الدلو وغسلهما مرة أخرى.

ثم أخرج ملفًا جلديًا صغيرًا وقال: «لن يكون حكمنا قاسيًا؛ فالتعاليم التي خرقها سوف تكتب على جسد المدان بالجرافة، فهذا الرجل المدان مثلًا - أشار الضابط إلى الرجل - سيكتب على جسده: عَظِّم رؤساءك».

نظر الرحالة إلى الرجل بعدما أشار إليه الضابط، فرآه قد أحنى رأسه وبدا أنه يبذل قصارى جهده ليسمع و يعلم بما يدور.

لكن حركات شفتيه الغليظتين اللتين زمهما بشدة، أظهرت بوضوح أنه لا يستطيع فهم أي شيء. أراد الرحالة أن يسأل أسئلة مختلفة، لكن عندما رأى الرجل سأل فقط: «هل يعرف الحكم الصادر ضده؟»

قال الضابط: «كلًا».

وكان على وشك مواصلة شرحه، لكن الرحالة قاطعه: «ألا يعرف الحكم الصادر ضده؟»

فقال الضابط مرة أخرى: «كلا»، ثم توقف للحظة وكأنه يطلب من الرحالة شرح سؤاله بمزيد من التفصيل، ثم قال: «لا جدوى من إخباره بالحكم وسوف يكتشف ذلك على جسده».

كان الرحالة على وشك أن يصمت عندما شعر أن المحكوم عليه يحدق به، وبدا كأنه يسأله إن كان يوافق على الإجراء السابق وصفه.

لذلك انحنى الرحالة، بعدما كان قد تراجع بظهره إلى الأمام مرة أخرى وسأل: «لكن أيعلم أنه أُدين بالفعل؟»

قال الضابط: «كلّا أيضًا»، وابتسم للرحالة كما لو كان يتوقع منه المزيد من التساؤلات الغريبة.

قال الرحالة وهو يمسح على جبهته: «كلّا، فما زال الرجل لا يعرف إن كان دفاعه سيُقبَل؟»

فقال الضابط: «لم يكن لديه فرصة للدفاع عن نفسه»، ثم نظر بعيدًا كأنه يتحدث إلى نفسه ولا يريد أن يحرج الرحالة بإخباره بهذه الأشياء التي اعتبرها أمرًا مفروغًا منه.

قال الرحالة وهو ينهض من كرسيه: «يجب أن تكون لديه فرصة للدفاع عن نفسه».

أدرك الضابط أنه معرض لخطر التأخير لفترة طويلة في شرح الآلة؛ فذهب إلى الرحالة وتأبط ذراعه، وأشار بيده إلى الرجل المدان الذي كان قد وقف في وضع الانتباه، بعد أن أدرك أن الاهتمام موجه إليه - وشدّ الضابط أيضًا السلسلة - وقال: الأمر سيجري كما يلي:

لقد تم تعييني قاضيًا هنا في مستعمرة العقاب، رغم حداثة سني لأنني كنت أيضًا بجانب القائد السابق في جميع العقوبات وأعرف الآلة على أفضل وجه، أما المبدأ الذي أحكم بموجبه فهو: أن الذنب لا شك فيه.

والمحاكم الأخرى لا يمكنها الامتثال لهذا المبدأ لأنها متعددة الرؤساء ولديها أيضًا درجات حكم أعلى، والحال هنا ليس كذلك، أو على الأقل لم يكن الحال السائد في عهد القائد السابق.

لقد أبدى القائد الجديد رغبة في التدخل في أحكامي، لكنني تمكنت من صد هذا حتى الآن، وسأواصل القيام بذلك. فإن أردت تفسيرًا لهذه القضية فالأمر بسيط، فهى مثل غيرها.

أفاد أحد النقباء صباح اليوم أن هذا الرجل الذي تم تعيينه له كخادم وينام أمام

بابه، قد نام أثناء الخدمة، وكان من واجبه أن ينهض عند كل ضربة ساعة مؤديًا التحية أمام باب النقيب.

يقينًا ليست هذه مهمة ثقيلة ولكنها ضرورية لأنه كان يجب عليه أن يظل متيقظًا للحراسة والخدمة. في الليلة الماضية أراد النقيب أن يرى ما إذا كان الخادم يقوم بواجبه، ففتح الباب عند الساعة الثانية فوجده قد تكور نائمًا.

فجاء بالسوط وضرب به وجهه، وبدلًا من النهوض وطلب المغفرة، أخذ الرجل سيده من رجليه وهزه وصرخ: «ارمِ السوط بعيدًا وإلا سوف آكلك».

هذا هو الوضع.

وقد جاء النقيب إليّ من ساعة وسجلت أقواله، ثم أصدرت الحكم في الحال. ثم وضعت الرجل في السلاسل. كان كل شيء بسيطًا للغاية، ولو إني استدعيت الرجل أولًا واستجوبته لأدى ذلك إلى الارتباك فقط. كان سيكذب، ولو نجحت في دحض أكذوبته لكان استبدلها بأكذوبة جديدة وهكذا. لكنني الآن أمسكت به و لن أتركه. هل تم شرح كل شيء الآن؟ فالوقت يمر، ويجب أن يبدأ الإعدام بالفعل، وأنا لم أنته بعد من شرح الآلة.

وحث المسافر للجلوس على الكرسي، وعاد إلى الآلة وبدأ:

«كما ترون، فالجرافة تتوافق مع شكل الإنسان؛ فهنا جرافة للجزء العلوي من الجسم وهنا جرافتان للساقين. وهذه الجرافة الصغيرة مخصصة للرأس، فهل هذا واضح؟»

ثم انحنى بودٍ نحو الرحالة، مبديًا استعداده لشرح وافٍ.

نظر الرحالة إلى الجرافة عابسًا، فما سمعه عن المحاكمة لم يرضه. فعلى الأقل كان مضطرًا أن يقول لنفسه إن هذه ما هي إلا مستعمرة عقاب، وأن القواعد الاستثنائية هنا كانت ضرورية وأن الإجراءات هي إجراءات عسكرية تمامًا.

إضافةً إلى ذلك فإنه كان قد علق بعض الآمال على القائد الجديد الذي على ما

يبدو كان ينوي- وإن كان ببطء- إجراء تعديل جديد، لم يستطع الضابط ضيق الأفق قبوله. وبناءً على مسار فكره هذا سأل الرحالة: «هل سيحضر القائد عملية الإعدام؟»

فقال الضابط محرجًا من السؤال المفاجئ وقد تلاشت ملامحه الودودة: «هذا غير مؤكد». ولهذا السبب تحديدًا لابد أن نسرع وسأضطر حتى إلى اختصار تفسيراتي، مهما بلغ أسفي على ذلك.

لكن غدًا عندما يتم تنظيف الآلة مرة أخرى - فهى متسخة للغاية – وهذ خطأ وحيد، فإنه يمكنني إضافة تفسيرات أكثر تفصيلًا.

وإليك الآن ما هو أساسي فقط، عندما يرقد الرجل على السرير الذي يبدأ في الاهتزاز، يتم إنزال الجرافة على الجسم. وهي تتوجه تلقائيًا لتمس الجسد بالكاد بأطرافها، وما أن يتم التوجيه يشتد هذا الحبل الفولاذي على الفور ليصبح طوقًا محكمًا ، لتبدأ حينئذ اللعبة.

ظاهريًا، لن يلاحظ من هو غير عالم ببواطن الأمور أي اختلاف ظاهري في العقوبات، فعمل الجرافة يبدو بشكل موحد، فهي تهتز لتوخز أطرافها الجسد الذي يهتز لذلك من السرير.

ومن أجل التيسير على الجميع التحقق من تنفيذ الحكم، فقد تم صنع الجرافة من الزجاج. وهو ما سبب صعوبات فنية، تمثلت في تثبيت الإبر فيها، لكننا نجحنا بعد محاولات عديدة، فنحن لا ندخر جهدًا.

والآن يمكن للجميع أن يروا من خلال الزجاج كيف يحدث النقش في الجسم، ألا تريد الاقتراب والنظر إلى الإبر؟.

نهض الرحالة ببطء وتوجه إليها، وانحنى على الجرافة.

قال الضابط: «هنا ترى نوعين من الإبر بأنظمة متعددة. فمع كل واحدة طويلة هناك واحدة قصيرة بجانبها، الطويلة تكتب والقصيرة تنفث الماء لغسل الدم والحفاظ على الكتابة واضحة دائمًا».

ثم يتم توجيه ماء الدم إلى مزاريب صغيرة ليتدفق في النهاية إلى هذه القناة الرئيسة، التي يفضي أنبوب صرف خاص بها إلى الحفرة. وأشار الضابط بإصبعه إلى المسار الذي كان يجب أن يسلكه ماء الدم بالضبط.

ولتوضيح الأمر قدر الإمكان أمسك بكلتا يديه فم أنبوب الصرف، وهنا رفع الرحالة رأسه وأراد العودة إلى كرسيه، وهو يلتمسه بيده من الخلف.

ثم رأى ما أدخل الرعب في نفسه أن الرجل المحكوم عليه، مثله قد قبل دعوة الضابط لإلقاء نظرة فاحصة على معدات الجرافة. فكان أن جر الجندي النائم من السلسلة إلى الأمام قليلًا وانحنى فوق الزجاج.

وقد راح يبحث بعيون قلقة عن ما طالعه السيدان للتو، ولكنه لم ينجح في ذلك لأنه يفتقر إلى الشرح. وصار ينحني هنا وهناك وهو يعاود النظر إلى الزجاج، فشاء الرحالة إعادته لأن ما كان يفعله ربما كان يستوجب العقاب.

Telegram:@mbooks90

إلا أن الضابط أمسك الرحالة بإحدى يديه، وأخذ بعضًا من تراب الحائط باليد الأخرى وقذف به نحو الجندي.

فرفع الجندي عينيه بنظرة مرتعشة، ورأى جرم المدان فأسقط البندقية، ودق قدميه في الأرض، وجرّ المدان إلى الوراء ليسقط على الفور، ثم نظر إليه وهو ينقلب وأغلاله تصلصل.

«دعه ينهض» هكذا صاح الضابط بعدما لاحظ أن المدان قد استحوذ على اهتمام الرحالة الذي كان ابتعد عن الجرافة راغبًا فقط في معرفة ما كان يحدث للمدان.

وصاح الضابط مرة أخرى: «عامله بحرص» ثم ركض حول الآلة وأمسك بالرجل المحكوم عليه من إبطه وأقامه بمساعدة الجندي الذي كان ينزلق بقدميه.

قال الرحالة عندما عاد الضابط إليه: «الآن أعرف كل شيء».

فقال الأخير: «عدا أهم الأمور»، ثم أمسك بالرحالة من ذراعه مشيرًا إلى أعلى:

«يوجد في الرسام مجموعة التروس التي تحدد حركة الجرافة، ويتم ترتيب

مجموعة التروس هذه وفقًا للرسم الذي يستند إليه الحكم. وما زلت أستخدم رسومات القائد السابق. ها هي - وقام بسحب بضع أوراق من المجلد الجلدي - لكن لسوء الحظ لا يمكنني أن أعطيك إياها، فهي أغلى ما لدي. اجلس، سأريك من هذه المسافة وسترى كل شيء جيدًا».

ثم أظهر الورقة الأولى.

ود الرحالة أن يقول شيئًا ينم عن التقدير، لكنه رأى فقط ما يشبه المتاهة، فغالبًا ما كانت تتقاطع خطوط مع بعضها لتغطي الورقة بكثافة حتى أنه كان من الصعب رؤية المساحات البيضاء بينها.

قال الضابط: «اقرأ».

قال الرحالة: «لا أستطيع».

قال الضابط: «هذا واضح».

قال الرحالة مراوغًا: «إنه مكتوب بشكل فني للغاية، لكن لا يمكنني فك رموزه».

قال الضابط وهو يضحك وهو يعيد الملف إلى جيبه: «نعم، إنه ليس خطًا جميلًا لأطفال المدارس. فسوف تحتاج وقتًا طويلًا لقراءتها، وسوف تتعرف أنت أيضًا عليه في النهاية».

بالطبع، لا يمكن أن يكون الكتابة بسيطةً. فليس من المفترض أن تقرر القتل على الفور ولكن خلال اثنتي عشرة ساعة في المتوسط وتم تحديد التحول بالساعة السادسة. لذلك يجب أن يكون هناك الكثير والكثير من الزخرف المحيط بالكتابة؛ فالكتابة الحقيقية تغطي الجسم في نطاق ضيق فقط، بينما يُستغل باقي الجسم للزخرفة - هل يمكنك الآن تقدير عمل الجرافة والآلة كلها؟ - فلتنظر».

قفز على السلم، أدار عجلة ونادى للأسفل: «انتبه، تنحَّ جانبًا» وبدأ كل شيء في الحركة.

لو لم تهدر العجلة، لكان هذا رائعًا. وكأن الضابط فوجئ بهذه العجلة المزعجة،

فهددها بقبضته ثم فرد ذراعيه معتذرًا نحو الرحالة ونزل مسرعًا إلى أسفل لمراقبة عمل الآلة من أسفل.

كان هناك شيء على غير ما يرام لم يلاحظه أحد، فصعد مرة أخرى وأدخل كلتا يديه إلى داخل الرسام، ومن أجل النزول بسرعة أكبر لم يستخدم السلم، بل انزلق إلى أسفل على أحد القضبان ولشدة الضوضاء صرخ بأقصى ما لديه ليصل صوته إلى أذن الرحالة:

«هل تدرك ما حدث؟ لقد بدأت الجرافة في الكتابة؛ فإن انتهت من أول تطبيق للكتابة على ظهر الرجل، فإنها تقوم بلف طبقة من القطن ودفع الجسم ببطء على جانبه لإفساح مساحة جديدة للجرافة».

أثناء ذلك تنتقل مواضع الجرح المكتوبة إلى القطن الذي تبعًا لمعالجته الخاصة، يوقف النزيف على الفور ويجهز الكتابة لعمق جديد. هنا تقوم السِنن على حافة الجرافة أثناء تقلب الجسم بتمزيق القطن من الجروح، ثم تلقى بالقطن في الحفرة لتعاود الجرافة العمل. هكذا تظل تكتب بنحو أعمق لاثنتي عشرة ساعة. في الساعات الست الأولى يعيش الشخص المدان تقريبًا كما كان من قبل، فيعاني فقط من الألم. وبعد ساعتين يتم إزالة اللباد لأن الرجل يكون قد فقد قدرته على الصراخ. هنا في نهاية الطرف في هذا الوعاء الذي يتم تسخينه كهربائيًا يتم وضع عصيدة أرز دافئة، يمكن للرجل أن يأخذ منها ما يمكنه التقاطه بلسانه، إن كان لديه رغبة في ذلك. لا أحد يفوت هذه الفرصة وأنا لا أعرف أحدًا فاتته الفرصة، وتجربتي في هذا رائعة. وهو لا يفقد شهية الأكل إلا عند الساعة السادسة. هنا عادة ما أركع لأشاهد هذه الظاهرة، ونادرًا ما يبتلع الرجل القضمة الأخيرة، بل يديرها في فمه ويبصقها في الحفرة. فيتعين عليّ الانحناء حتى لا تصيب وجهي، ولكن ما مدى سكون الرجل في الساعة السادسة؟ هنا يتفتح ذهن أكثر الناس غباءً. وهذا الأمر يبدأ حول العينين. ينتشر من هناك، إنه مشهد يمكن أن يغريك بالاستلقاء تحت الجرافة، ولا يحدث أي شيء بعد ذلك، فالرجل يبدأ فقط في فك رموز الكتابة فيمط شفتيه كما لو كان يستمع. لقد رأيت أنه ليس من السهل حل رموز الكتابة بعينيك، لكن رجلنا يحلها

بجروحه، إنه عمل يستغرق وقتًا طويلا فيمتد إلى ست ساعات ليكتمل، ولكن بعد ذلك تجهز عليه الجرافة تمامًا وتلقي به في الحفرة ليرتطم هناك بماء الدم والقطن، ثم تنتهي المحكمة ونقوم أنا والجندي بدفنه.

كان الرحالة قد أدنى أذنه من الضابط واضعًا يديه في جيبي معطفه مراقبًا عمل الآلة، كما كان الرجل المدان يراقبها، لكن دون فهم.

انحنى قليلًا متابعًا الإبر المتأرجحة بينما قطع الجندي بإشارة من الضابط، قميصه وسرواله بسكين حتى يسقطا عن الرجل المدان الذي شاء التقاط ما سقط حتى يستر ما تعرى من جسده، لكن الجندي رفعه إلى أعلى ليسقط آخر ما تبقى من متاعه.

أوقف الضابط الآلة، وفي ظل الصمت الذي خيم حينئذ، وُضِع الرجل المدان تحت الجرافة، وتم فك الأغلال وربط الأحزمة بدلًا منها؛ فبدا الأمر للوهلة الأولى كأنه من أجل راحة المحكوم عليه.

وهنا نزلت الجرافة إلى مستوى أكثر عمقًا لأن الرجل كان نحيفًا، وعندما مسته القمم المدببة سرت قشعريرة في جلده وبينما كان الجندي مشغولًا بيده اليمنى مدّ يده اليسرى دون أن يعرف إلى أين يتجه، ولكن كانت هذه هي الجهة التي وقف فيها الرحالة.

ظل الضابط ينظر جانبًا إلى الرحالة، كما لو كان يحاول أن يقرأ في ملامح وجهه انطباعه عن تنفيذ الإعدام، الذي شرحه له على الأقل بنحو سطحي.

تمزق الحزام المخصص للمعصم. ربما لأن الجندي قد تجاوز في شده، وكان من المفترض أن يساعده الضابط، فأراه الجندي قطعة الحزام الممزقة، فتقدم إليه الضابط وقال محوِّلًا وجهه صوب الرحالة:

«إن الآلة نظام معقد للغاية، ولابد أن يتصدع أو ينكسر شيء من حين لآخر؛ لكن هذا لا ينبغي أن يربك حكمنا العام. فعامةً، فإنه يتم توفير للقيد بديل على الفور؛ سأستخدم سلسلة، ومن خلال ذلك يصير القيد لين الاهتزاز، ضعيفًا بالنسبة للذراع اليمنى».

وبينما كان يضع السلاسل قال:

«إن وسائل صيانة الماكينة محدودة للغاية الآن، لكن تحت قيادة القائد السابق، كانت هناك ميزانية متاحة لي مخصصّة لهذا الغرض فقط. وكان لدينا مخزن هنا يحتفظ بجميع أنواع قطع الغيار، وإني أعترف أنني كنت على وشك إهدارها، أقصد في الماضي وليس الآن كما يدعي القائد الجديد، الذي يستغل كل شيء كذريعة لمحاربة مرافق النظام القديم. وقد سيطر هو الآن على ميزانية الآلات، فإذا أرسلت في طلب قيد جديد، فإنه يطلب القيد الممزق كدليل، ولا يأتي القيد الجديد إلا بعد عشرة أيام، ولكن بعد ذلك يكون من نوع أسوأ ولا يحتمل طويلًا. وأثناء ذلك لا أحد يهتم بكيفية تشغيل الآلة بدون قيد».

فكر الرحالة: «لابد للمرء مراجعة نفسه قبل أن يتدخل تدخلًا حاسمًا في علاقات غريبة عنه». فهو لم يكن من مواطني مستعمرة العقاب ولا مواطنًا في الدولة التي تنتمي إليها، فإذا أراد إدانة هذا الإعدام أو حتى إحباطه، فيمكن أن يقال له: أنت أجنبي، فلتزم الصمت.

لم يكن بإمكانه الرد على هذا، ولكن يمكنه فقط أن يضيف أنه لا يفهم في هذه الأحوال، لأنه يسافر فقط بنية الرؤية وليس لتغيير أنظمة المحاكم الأجنبية بأي حال من الأحوال.

لكن الأمور هنا كانت مغرية للغاية. فكان ظلم المحاكمة ووحشية الإعدام أمرًا لا شك فيه. ولا يمكن لأحد افتراض أن للرحالة مصلحة شخصية في ذلك، فالرجل المدان كان غريبًا عنه، وليس مواطنًا من بلده أو إنسانًا لا يثير الشفقة.

كان الرحالة يحمل توصيات من مناصب عليا، فتم استقباله هنا بترحاب كبير، وأن دعوته إلى عملية الإعدام هذه تشير إلى أن حكمه على هذه المحكمة كان مطلوبًا.

وقد بدا هذا مرجحًا لأن القائد- كما سمع كثيرًا الآن- لم يكن مؤيدًا لهذا الإجراء وكان معاديًا للضابط.

ثم سمع الرحالة الضابط يصرخ غاضبًا، فعندما كان يدفع سدادة اللباد بصعوبة في

فم المحكوم عليه، أغمض المدان عينيه بعد أن شعر بغثيان لا يقاوم، فتقيأ.

فسارع الضابط إلى انتزاع سدادة اللباد وشاء أن يدير رأسه نحو الحفرة؛ ولكن بعد فوات الأوان، فكان القيء يتدفق بالفعل عبر الماكينة. فصاح الضابط وهو يهز مقدمة القضبان النحاسية بلا معنى: «ستصير الآلة قذرة كالاسطبل».

وبيدين مرتجفتين أشار للرحالة إلى ما حدث: «ألم أحاول لساعات أن أجعل القائد يفهم أنه لا ينبغي تقديم المزيد من الطعام في اليوم السابق للإعدام. لكن التوجه الرحيم الجديد كان له رأى آخر. فنساء القائد يقمن بحشو حلق الرجل بالحلوى قبل اقتياده. وهو من كان طوال حياته يتغذى على أسماك كريهة الرائحة فصار عليه الآن أن يأكل الحلوى. وكنت سأقبل هذا ولن أعترض، لكن لماذا لا نشتري لبادًا جديدًا، كما طلبت منذ ثلاثة أشهر. كيف يمكن وضع هذا اللباد في فم رجل دون أن يتقزز منه بعد أن مصه وعضه قبله أكثر من مائة رجل وهم يحتضرون».

كان الرجل المدان قد نكس رأسه وبدا مسالمًا، وكان الجندي مشغولًا بتنظيف الماكينة بقميص الرجل المدان. مضى الضابط نحو الرحالة الذي تراجع لعلةٍ ما خطوة إلى الوراء، لكن الضابط أخذ يده وتنحى به جانبًا، وقال: «أريد أن أسر إليك ببضع كلمات بيني وبينك. فهل تسمح لي؟»

قال الرحالة: «بالتأكيد»، وأنصت بعد أن أرخى جفنيه.

«هذه المحاكمة وهذا الإعدام اللذان سنحت لك فرصة إبداء دهشتك لهما، لم يعد لهما مؤيد صريح في مستعمرتنا. وإني الممثل الوحيد لهما، وفي الوقت نفسه الممثل الوحيد لإرث القائد القديم. لم يعد بوسعي التفكير في تطوير هذه التجربة بعد أن استنفذت كل طاقتي للحفاظ على ما هو قائم. عندما كان القائد القديم على قيد الحياة كانت المستعمرة مليئة بأنصاره، ورغم امتلاكي بعض قدرات القائد القديم على الإقناع، إلا إني أفتقر تمامًا إلى سلطته؛ ونتيجة لذلك، توارى المؤيدون رغم أن هناك الكثير منهم، لكن لا أحد منهم يقر بذلك. فإن ذهبت إلى المقهى اليوم، أي يوم عملية الإعدام واستمعت إلى ما يدور هناك، فقد تسمع فقط عبارات تحمل معانٍ مختلفة. إنهم جميعًا من المؤيدين لكنهم غير مفيدين تمامًا لي في ظل رؤية القائد

الحالي.

والآن أسألك: «هل يجب أن يتم تدمير مثل هذا الجهاز الفريد - أشار إلى الآلة - بسبب هذا القائد ونسائه اللائي يؤثّرن عليه؟ هل يمكنك السماح بذلك؟ حتى لو كنت فقط في جزيرتنا لبضعة أيام كأجنبي؟ لكن ليس هناك وقت لنضيعه، هناك شيء ما يجري إعداده ضد سلطتي القضائية، هناك بالفعل مشاورات تجري في مركز القيادة لم يتم استدعائي إليها، حتى زيارتك اليوم تبدو لي مؤشرًا على الوضع برمته؛ فلإنهم جبناء دفعوا بك إلى هنا أيها الأجنبي.

- فكيف كان الإعدام مختلفًا في الزمن السابق؟ في اليوم السابق للإعدام، كان الوادي كله يغص بالناس. فقد جاء الجميع ليشاهدوا فقط؛ كما ظهر القائد في الصباح الباكر مع نسائه، ويكون النفير قد أيقظ المخيم بأكمله لأعلن أن كل شيء صار جاهزًا، كما حضر الجميع - فلا يمكن أن يغيب مسؤول كبير – والتفوا حول الآلة على هذه الكراسي المصنوعة من القضبان التي تعتبر من الأشياء السيئة التي تعود إلى ذلك الزمن، وتكون الآلة قد لمعت بعد تنظيفها، وقد كنت أتسلم قطع غيار جديدة تقريبًا لكل عملية إعدام. أمام مئات العيون – وجميع المتفرجين يقفون على أطراف أصابعهم حتى حدود المرتفعات – ويقوم القائد بنفسه بوضع المدان تحت المجرفة. أما ما يُسمح للجندي العادي أن يفعله اليوم، كنت أقوم به أنا كرئيس المحكمة، كان عملي الذي يشرّفني. الآن بدأ الإعدام، لم يكن هناك ما يعطل عمل الآلة، البعض لم يعودوا ينظرون بل رقدوا في الرمال بعيون مغلقة؛ فقد كان الجميع يعلم أن العدالة تتحقق الآن.

وبينما يسود الصمت لم يكن هناك ما يمكن سماعه سوى أنين المحكوم عليه الذي كتمه اللباد، أما اليوم فلم تعد الآلة قادرة على إخراج أنين من المدان أقوى مما يمكن أن يكتمه اللباد، وفي ذلك الوقت كانت إبر الكتابة تفرز مادة كاوية لم يعد مسموحًا باستخدامها اليوم.

حسنًا، ها قد حانت الساعة السادسة، وقد كان من المحال منح الجميع الموافقة على المتابعة عن كثب. وكان القائد يأمر وفقًا لرأيه بأخذ الأطفال في الاعتبار قبل

كل شيء؛ ومع ذلك، كان يُسمح لي دائمًا بسبب مهنتي بالحضور، فغالبًا ما كنت أجلس هناك مع طفلين صغيرين بين ذراعي على كلا الجانبين. فكيف استقبلنا جميعًا تعبير التجلي من الوجه المعذب؟ كيف واجهنا وهج هذه العدالة التي تحققت ونفذت أخيرًا؟ ياله من زمن يا رفيقي».

كان من الواضح أن الضابط نسي من كان يقف أمامه؛ فقد عانق الرحالة واضعًا رأسه على كتفه. شعر الرحالة بالحرج الشديد، فنظر متململًا بعيدًا عن الضابط فرأى الجندي ينهي أعمال التنظيف وأخذ يصب عصيدة الأرز من العلبة في الوعاء.

وما كاد يلحظ ذلك المدان الذي بدا أنه تعافى تمامًا فبدأ يلعق العصيدة بلسانه، فأخذ الجندي يدفعه بعيدًا مرارًا لأن العصيدة كانت معدة لوقت لاحق، لكن كان من غير اللائق على أية حال أن يدس الجندي يديه القذرتين في الطعام ويأكل منه أمام المدان الشره.

تمالك الضابطَ نفسه بسرعة، وقال: «لم أقصد التأثير عليك، فأنا أعلم أنه من المحال جعل ذاك الزمن واقعًا ملموسًا اليوم. وعامةً فإن الآلة لا تزال تعمل وتستمتع بذلك، حتى لو كانت وحدها في هذا الوادي. وفي النهاية، فإن الجثة لا تزال تهوى في الحفرة في سقوط هادئ لا يمكن إدراكه، حتى ولو لم يعد الأمر كما كان سابقًا، حيث كان يتجمع المئات مثل الذباب حول الحفرة. في ذلك الوقت كان علينا أن نضع سياجًا قويًا حول الحفرة، وقد انهار منذ فترة طويلة».

أراد الرحالة تحويل وجهه عن الضابط لينظر حوله بلا هدف، فظن الضابط أنه كان ينظر إلى جدب الوادي. فأخذ يديه واستدار لينظر في عينيه ويسأله: «ألا ترى العار؟»

لكن الرحالة لاذ بالصمت، ليدعه الضابط لبعض الوقت وقد وقف ساكنًا بساقين متباعدتين ويداه في وسطه، وهو ينظر إلى الأرض ثم ابتسم مشجعًا الرحالة، وقال: «كنت بالقرب منك أمس لما دعاك القائد، وقد سمعت الدعوة. ولأنني أفهم القائد فقد فهمت على الفور ما كان يقصده بالدعوة، ورغم أن قدرته كبيرة بما يكفي لاتخاذ إجراء إلا أنه لا يجرؤ بعد، لكنه يريد أن يعرّضني لحكمك، وهو حكم شخص غريب

محترم. إن حساباته دقيقة، وأنت هنا في الجزيرة لليوم الثاني، ولم تعرف القائد القديم ودائرة أفكاره، فأنت محصور في وجهة النظر الأوروبية، وربما أنت معارض أساسي لعقوبة الإعدام بشكل عام وهذا النوع من آلات التنفيذ على وجه الخصوص، أنت ترى أيضًا كيف يتم تنفيذ الإعدام بدون مشاركة الجمهور، للأسف.. على جهاز تالف إلى حدٍّ ما - إذا كان كل هذا معًا (هكذا يعتقد القائد)، فلن يكون من السهل عليك أن تعتقد أن إجرائي كان غير صحيح؟ وإذا كنت لا تعتبر ذلك صحيحًا، فلن تسكت عن ذلك (ما زلت أتحدث بروح القائد)، لأنك يقينًا تثق في قناعاتك المجربة كثيرًا.

ومع ذلك، فقد رأيت وتعلمت احترام العديد من الخصائص المميزة للعديد من الشعوب، لذلك فمن غير المرجح أن تتحدث بكل قوتك، كما قد تفعل في بلدك ضد هذا الإجراء.

لكن القائد لا يحتاج ذلك على الإطلاق، فتكفي كلمة عابرة مهملة. ولا يجب أن يتطابق ذلك مع ما تؤمن به أنت إن كان يتناسب مع ما يسعى إليه هو. وأنا موقنٌ بأنه سوف يستجوبك بكل ما أوتى من حيلة وستجلس نساؤه في حلقة شاحذات أسماعهن، ولسوف تقول على سبيل المثال: «لدينا إجراءات قانونية مختلفة»، أو «لدينا يتم استجواب المتهم قبل صدور الحكم»، أو «لدينا يعرف الشخص المدان حيثيات الحكم»، أو «لدينا أيضًا عقوبات أخرى غير عقوبة الإعدام»

أو «لقد عانينا من التعذيب فقط في العصور الوسطى». هذه كلها ملاحظات صحيحة تمامًا كما تبدو واضحة لك، ملاحظات بريئة لا تؤثر على إجرائي، ولكن كيف سيستقبلها القائد؟»

إني أراه القائد الطيب وهو يدفع الكرسي جانبًا على الفور مسرعًا إلى الشرفة، وإني أرى نساءه يتدفقن نحوه، وإني أسمع صوته - الذي تسميه النسوة هدير الرعد - حسنًا، وهو يقول:

«باحث كبير من الغرب، مفوض بمراجعة الإجراءات القانونية في جميع البلدان، قال إن إجراءاتنا وفقًا للأعراف القديمة غير إنسانية. بعد هذا الحكم على مثل هذا

الشخص، لم يعد من الممكن لي تحمل بالطبع تحمل هذا الإجراء. اعتبارًا من اليوم فإن آمر بكذا - إلخ».

أما أنت فسوف تتدخل لتعلن أنك لم تقل ذلك، ولم تصف إجرائي بأنه غير إنساني، بل على العكس، فوفقًا لرؤيتك العميقة فأنت تعتبره الأكثر إنسانية وأكثر ما يليق بكرامة الإنسان، أنت معجب أيضًا بهذه الآلية، لكن فات الأوان؛ فأنت لن تخرج حتى إلى الشرفة المليئة بالنساء، تريد أن يلحظوا وجودك، تريد الصراخ، لكن يد سيدة ستكمم فمك، ونكون أنا وعمل القائد القديم قد ضعنا».

كان على الرحالة أن يكتم الابتسامة؛ فقد كانت المهمة سهلة للغاية تلك التي ظن أنها صعبة للغاية، فقال مراوغًا: «أنت تبالغ في تقدير تأثيري، فلقد قرأ القائد خطاب التوصية الخاص بي وهو يعلم أنني لست على دراية بالإجراءات القانونية. إذا كنت سأعبر عن رأي، فسيكون رأي مواطن عادي ليس أكثر أهمية من رأي أي شخص آخر، وعلى أية حال هو أقل أهمية بكثير من رأي القائد الذي أعتقد أنني أعلم أن لديه صلاحيات واسعة للغاية في مستعمرة العقاب هذه».

وإذا كان رأيه في هذا الإجراء واضحًا كما تعتقد، فأخشى أن تكون نهاية هذا الإجراء قد صدرت دون الحاجة إلى مساعدتي المتواضعة.

فهل فهم الضابط ذلك؟ لا، لم يفهم بعد. فقد هزَّ رأسه بقوة ملقيًا نظرة سريعة خلفه إلى الرجل المدان والجندي اللذين جفلا وتركا الأرز، ثم دنا كثيرًا من الرحالة، ولم ينظر إلى وجهه وإنما إلى موضع ما بمعطفه وقال بهدوء أكثر من ذي قبل:

«أنت لا تعرف القائد، وأنت إلى حدٍّ ما غير مؤذٍ له ولنا جميعًا – واغفر لي هذا التعبير، صدقني.. فتأثيرك لا يمكن تقديره بما يكفي، ولقد سعدت عندما سمعت أنك ستحضر وحدك عملية الإعدام. كان من المفترض أن يكون هذا الأمر الصادر من القائد ضدى، لكنني الآن أقوم بتحويله لصالحي.

لقد استمعت إلى شرحي وشاهدت الآلة وأنت الآن على وشك فحص عملية الإعدام، دون أن تشتت انتباهك من خلال همسات زائفة ونظرات محتقرة. لم يكن

من الممكن تجنبها بمشاركة أكبر في عملية الإعدام، لقد صدر حكمك بالفعل. وإن كان ما زال هناك أي شكوك بسيطة، فإن مشهد الإعدام سيزيلها، والآن أسألك أن تساعدني في مواجهة القائد.

لم يدعه الرحالة يواصل حديثه، فصاح قائلًا: «كيف يمكنني ذلك، هذا مستحيل تمامًا، لا يمكنني أن أفيدك تمامًا كما لا يمكنني أن أؤذيك».

«بوسعك فعل هذا» هكذا قال الضابط، بينما كان الرحالة ينظر بشيء من القلق إلى الضابط وهو يكور قبضتيه، فكرر الضابط بإلحاح: «يمكنك هذا، لدي خطة يجب أن تنجح، فإن اعتقدت أن تأثيرك لا يكفي، فأنا أعرف أنه كافٍ لكن، عليّ أن اعترف بأنك على حق، أفليس من الضروري من أجل الحفاظ على هذه التجربة أن نجرب كل شيء، حتى هذا غير الكافي؟»

لذا اسمع خطتي، فمن أجل تنفيذها سيكون من الضروري قبل كل شيء أن تتراجع قدر الإمكان عن حكمك على الإجراء في المستعمرة اليوم، إذا لم يتم سؤالك بشكل صريح، فلا يجب عليك بأي حال من الأحوال الإفصاح عن رأيك؛ لكن يجب أن تكون أقوالك موجزة وغير محددة، ويجب أن يلحظ أنه من الصعب عليك التحدث عن ذلك، وأنك تشعر بالمرارة، وإذا تحدثت بصراحة فسوف تضطر أن تنفجر في السباب. أنا لا أطلب منك أن تكذب. على الإطلاق؛ يجب أن تكون ردودك وجيزة فقط، مثل: «نعم، لقد رأيت الإعدام» أو «نعم، لقد سمعت كل التفسيرات». هذا فقط، لا شيء أكثر.

وهناك سبب كافٍ لشعورك بالمرارة التي تبدو عليك، حتى لو لم يتسق هذا مع رأي القائد. فهو بالطبع سوف يسيء فهم ذلك تمامًا ويفسره بطريقته الخاصة، وخطتي مبنية على ذلك. غدًا سيعقد اجتماع كبير في مركز القيادة لجميع كبار المسؤولين الإداريين برئاسة القائد بالطبع، والقائد يعرف كيف يحول مثل هذه الاجتماعات إلى ساحة عرض. فيتم إعداد معرض دائمًا ما يكون غاصًا بالمتفرجين.

وأنا مضطر للمشاركة في المداولات، لكني أمتعض اشمئزازًا. على أية حال ستتم دعوتك إلى الاجتماع، فإذا كنت تتصرف وفقًا لخطتي اليوم، فستصبح الدعوة

رجاءً ملحًا. ومع ذلك، إذا لم تتم دعوتك لسببٍ ما لا يمكن تفسيره، فسيتعين عليك طلب الدعوة، وليس هناك شك في أنك ستحصل عليها بعد ذلك. غدًا إذن سوف تجلس مع النساء في شرفة القائد، وغالبًا ما يتأكد من أنك هناك من خلال النظر إلى أعلى، وسوف يتطرق الحديث إلى المحاكمة بعد تداول مواضيع مختلفة لا معنى لها تافهة وسخيفة لإلهاء الجمهور فقط – وهي غالبًا ما تدور حول مباني الميناء، ومباني الميناء ثانية. فإذا لم يحدث ذلك أو لم يقم القائد بإعلان ذلك بسرعة كافية، فسأحرص على حدوث ذلك. سوف أنهض وأبلغ عن إعدام اليوم. باختصار شديد، سأعلن عن ذلك فقط، مثل هذا الإعلان ليس أمرًا مألوفًا، لكني سأفعل، وسيشكرني القائد كما هو الحال دائمًا، بابتسامة ودية وحينئذٍ لن يمكنه التراجع، ويستغل الفرصة الطيبة: «تم إعداد تقرير الإعدام للتو»، هكذا سوف يتحدث أو بطريقة مماثلة. أود فقط أن أضيف إلى هذا التقرير أن الرحالة العظيم الذي شرف مستعمرتنا بزيارته، كما تعلمون جميعًا، كان حاضرًا عملية الإعدام هذه بالذات. وقد ازدادت أهمية اجتماعنا اليوم بحضوره، فألا نود أن نسأل هذا الباحث العظيم كيف كان حكمه على عملية الإعدام حسب العرف القديم والإجراء الذي سبقه؟ وسيعقب ذلك بالطبع تصفيق وموافقة عامة وسأكون أنا الأعلى صوتًا وسوف ينحني لك القائد ويقول:

«إذن فإني باسم الجميع أطرح السؤال». وهنا سوف تخطو إلى السور، فتضع يديك حتى يراها الجميع، وإلا أمسكت بها النساء ولعبت بأصابعها، والآن تأتي كلمتك أخيرًا. لا أعرف كيف سأتحمل توتر الساعات حتى ذلك الحين. ولا يجب أن تضع لنفسك أي حواجز في خطابك، فلتحدث ضوضاء حول الحقيقة، ولتتكئ على السور، ولتصرخ، نعم.. اصدح أمام القائد برأيك، رأيك الذي لا يتزعزع، لكن ربما لا تريد ذلك الذي لا يناسب شخصيتك، في بلدك قد تتصرف بشكل مختلف في مثل هذه المواقف وهذا صحيح أيضًا وهذا أيضًا كافٍ تمامًا، لا تقف على الإطلاق، فقط قل بضع كلمات، اهمس بها فلا يكاد يسمعها سوى الموظفون الجالسون أدناك، هذا يكفي، ليس عليك مطلقًا التحدث عن عدم المشاركة في عملية الإعدام، وعن عجلة ذات صرير، وحزام الممزق، واللباد المقزز. كلا، وسوف أهتم أنا بكل شيء آخر.

صدقني.. إذا لم تطرده كلماتي إلى خارج القاعة، فإنه سوف يجثو على ركبتيه، ويعترف قائلًا : أيها القائد القديم، أنحني لك.

- «هذه خطتي، هل ستساعدني في تنفيذها؟ أنت بالطبع تريد، بل أكثر من ذلك، فعليك أن تفعل ذلك».

أمسك الضابط الرحالة من ذراعيه ونظر في وجهه وهو يتنفس بصعوبة، وكان قد صرخ بالعبارتين الأخيرتين على نحو لاحظه حتى الجندي والرجل المدان، ورغم أنهما لم يستطيعا فهم أي شيء إلا أنهما أمسكا قليلًا عن تناول الطعام ونظرا إلى الرحالة وهما يلوكان الطعام.

كان هذا هو رده الذي كان الرحالة لا يشك فيه من البداية؛ وهو من تعلم الكثير في حياته حتى لا يقف هنا موقف المتحير، فعلى أية حال كان صادقًا ولا يخاف. ومع ذلك، فقد تردد للحظة عند رؤية الجندي والرجل المحكوم عليه. لكنه في النهاية قال الذي اضطر إلى قوله: «كلًا».

رف الضابط عينيه عدة مرات، لكنه لم يرفع عينيه عن الرحالة الذي سأله: «هل تريد تفسيرًا؟».

فلما أومأ الضابط بصمت قال الرحالة: «أنا معارض لهذا الإجراء، قبل أن تمنحني ثقتك – وبالطبع لن أسيء استغلال هذه الثقة تحت أي ظرف – وقد كنت أفكر بالفعل فيما إذا كان يحق لي التدخل ضد هذا الإجراء وما إذا كان تدخلي قد يكون له أدنى فرصة للنجاح».

كان واضحًا لي إلى من يجب أن ألجأ أولًا إلى القائد بالطبع. لقد جعلت لي الأمر بشكل أوضح، لكن دون أن أؤكد قراري أولًا، على العكس من ذلك، فإن قناعتك الصادقة تؤثر عليّ، حتى لو لم تستطع أن تضللني.

ظل الضابط صامتًا والتفت إلى الآلة، وأمسك بأحد القضبان النحاسية ثم انحنى قليلًا ونظر إلى الرسام كما لو كان يتحقق من أن كل شيء على ما يرام. وقد بدا أن الجندي والرجل المحكوم عليه أصبحا صديقين؛ فقد رسم المحكوم عليه إشارة

للجندي رغم صعوبة ذلك بسبب القيد الشديد؛ فانحنى الجندي عليه ليهمس المحكوم عليه بشيء فأومأ الجندي.

مضى الرحالة خلف الضابط وقال: «أنت لا تعرف بعد ما أنتوى فعله، سأخبر القائد عن رأيي في الإجراء، لكن ليس في اجتماع بل على انفراد، ولن أبقى هنا طويلًا بما يكفي لدعوتي إلى أي اجتماع، سأغادر صباح الغد أو على الأقل سأكون بالسفينة».

لا يبدو أن الضابط كان يستمع، فقد قال لنفسه: «إذن لم تقتنع بإجراء المحاكمة»، وابتسم مثل رجل عجوز يسخر من هراء طفل ويحتفظ بأفكاره الحقيقية وراء الابتسامة.

«إذن قد حان الوقت»

هكذا قال أخيرًا، وفجأة نظر إلى الرحالة بعيون مشرقة تحتوي على طلب ما، أو مناشدة ما من أجل المشاركة.

«أي وقت قد حان؟»

هكذا سأل الرحالة بقلق، لكنه لم يحصل على إجابة.

هنا قال الضابط للرجل المحكوم عليه بلغته «أنت حر». في البداية لم يصدق ذلك. فقال الضابط: «حسنا، أنت حر».

ولأول مرة ظهرت حياة حقيقية على وجه الرجل المدان، هل كان هذا حقيقيًا؟ هل كانت مجرد نزوة من الضابط يمكن أن تمر؟ هل أدركته الرحمة تأثرًا بالغريب؟ ماذا كان هذا؟ هكذا بدا وجهه متسائلًا، لكن ليس لوقت طويل.

مهما كان الأمر، فقد أراد حقًا أن يكون حرًا إذا استطاع وبدأ يهز نفسه بقدر ما تسمح به آلة الجرافة.

صرخ الضابط: «أنت تمزق حزامنا، اهدأ، سنقوم بحله».

وذهب لفعل ذلك مع الجندي بعد أن أشار إليه. ضحك الرجل المدان بهدوء ودون كلام، وسرعان ما أدار وجهه إلى اليسار إلى الضابط، والآن إلى يمين الجندي، ولم

ينس الرحالة أيضًا.

«اجذبه للخارج»، هكذا أمر الضابط الجندي. فقد كان لا بد من توخي بعض الحذر نحو الجرافة وقد أصيب الرجل المدان نتيجة نفاد صبره ببعض الجروح الصغيرة في ظهره، ومن الآن فصاعدًا، لم يعد يكترث الضابط به كثيرًا. مضى إلى الرحالة، وأخرج المجلد الجلدي الصغير مرة أخرى وتصفحه، ووجد أخيرًا الورقة التي كان يبحث عنها وأظهرها للرحالة ثم قال: «اقرأها».

قال الرحالة: «لا أستطيع، لقد قلت بالفعل إنني لا أستطيع قراءة هذه الأوراق»، ودنا من الضابط ليقرأ معه.

فلما لم يسعفه ذلك أيضًا، مرر إصبعه الخنصر على الورقة من مسافة بعيدة، كما لو أنه لا ينبغي لمس الورقة تحت أي ظرف، وذلك لتسهيل القراءة على الرحالة.

حاول الرحالة جاهدًا أيضًا على الأقل إرضاءً للضابط، لكن ذلك كان مستحيلًا. هنا بدأ الضابط في تهجئة النقش ثم قراءته مرة أخرى في سياقه.

فقال: «كن عادلًا – هكذا كُتب هنا»

«الآن يمكنك إذن قراءتها».

انحنى الرحالة على الورقة على نحو أدى بالضابط أن يسحب الوقة بعيدًا خوفًا من لمسها، هنا لم يقل الرحالة شيئًا أكثر من ذلك، ولكن كان من الواضح أنه لا يزال غير قادر على القراءة، ليقول الضابط مرة أخرى: «كن عادلًا» – هكذا كُتب هنا».

قال الرحالة: «ربما، أصدق أنه مكتوب».

«حسنًا» قال الضابط، وهو الأقل راضٍ نسبيًا، وصعد السلم حاملًا الورقة: «حسنًا». قام بوضع الورقة في الرسام بحرص شديد ويبدو أنه أعاد ترتيب التروس بالكامل، لكنها كانت مهمة شاقة للغاية، ولا بد أن التروس كانت عبارة عن عجلات صغيرة جدًا، حتى أن رأس الضابط كانت تختفي أحيانًا تمامًا داخل الرسام، لذلك كان عليه أن يفحص عمل التروس بعناية كبيرة.

لم يتوان الرحالة عن متابعة هذا العمل من أسفل فتصلبت رقبته وكلت عيناه من السماء المشمسة. أما الجندي والرجل المدان فكانا مشغولين فقط ببعضهما البعض، وقد استخدم الجندي رأس البندقية لسحب قميص وسراويل الرجل المدان التي كانت بالحفرة.

كان القميص متسخًا للغاية فقام الرجل المدان بغسله في حوض الماء. ولما ارتدى قميصه وسرواله، اضطر الجندي والمحكوم عليه إلى الضحك بصوت عالٍ، لأن الملابس كانت ممزقة من الخلف.

ربما اعتقد الرجل المدان أنه كان عليه أن يرفه عن الجندي، فاستدار بملابسه الممزقة أمام الجندي الذي رقد على الأرض وأخذ يضرب ركبتيه ضاحكًا، إلا أنهما كان يتحفظان في ذلك مراعاة لوجود السيدين.

عندما انتهى الضابط أخيرًا، نظر مرة أخرى مبتسمًا إلى كل شيء بكافة أجزائه، و هذه المرة أغلق غطاء الرسام الذي كان مفتوحًا حتى هذا الحين ونزل إلى أسفل، ونظر إلى الحفرة ثم إلى الرجل المدان، ولاحظ بارتياح أنه أخذ ملابسه ثم ذهب إلى دلو الماء لغسل يديه، فرأى الماء متسخًا إلى حد الاشمئزاز، فحزن لأنه لم يستطع غسل يديه، ثم غمسهما أخيرًا في الرمل – ولم يكن هذا كان البديل ليكفيه، لكن استسلم للأمر- ثم قام وبدأ في فك أزرار حلته الرسمية.

أثناء ذلك وقع في يديه منديلا النساء اللذين كانا قد ثبتهما خلف ياقته، ثم قال: «إليك مناديلك»، وألقى بها إلى الرجل المحكوم عليه، وقال للرحالة على سبيل التوضيح: «إنهما هدايا النساء».

رغم تعجله الواضح في خلع زيه العسكري ليتجرد من ملابسه تمامًا، فقد تعامل مع كل قطعة ملابس بحذر شديد، حتى أنه قام بالمسح على الحبل الفضي الخاص بسلاحه بأصابعه وعدل أحد أهدابه. لم تتسق هذه العناية على أية حال بما فعله عندما كان ينتهى من التعامل مع كل قطعة، فكان يلقي بها على الفور في الحفرة بدفعة لا إرادية.

وكان سيفه القصير بحزامه الحامل أخر لديه. فأخرج السيف من غمده وكسره، ثم جمع كل شيء معًا؛ أجزاء السيف والغمد والحزام، وألقاها بعنف حتى سمعت قرقعتها بقاع الحفرة.

الآن كان يقف هناك عاريًا. عضّ الرحالة على شفته ولم يقل شيئًا، كان يعرف ما سيحدث، لكن لم يكن لديه الحق في منع الضابط من فعل أي شيء. فهل كانت إجراءات المحاكمة التي تعلق الضابط بها قريبة من الإلغاء - ربما نتيجة لتدخل الرحالة وهو ما اعتقد الرحالة بأنه من واجبه - فيكون الضابط يفعل الآن الشيء الصحيح تمامًا، ولم يكن الرحالة ليسلك مسلكًا مختلفًا لو كان في مكانه.

في البداية لم يفهم الجندي والمحكوم عليه شيئًا، فهما لم يشاهدا ذلك من البداية. فقد كان المحكوم عليه سعيدًا للغاية باستعادة المناديل، لكنه لم يستطع الاستمتاع بها لفترة طويلة، لأن الجندي أخذها منه بخطفة سريعة غير متوقعة.

الآن حاول الرجل المدان مرة أخرى سحب مناديل الجندي من خلف الحزام حيث كان يحتفظ بها، لكن الجندي كان يقظًا، لذلك تنازعا في شبه مزاح. ولم يلاحظا ما حدث إلا بعد أن أصبح الضابط عاريًا تمامًا، فبدا أن الرجل المدان قد صُدم بهاجس حدوث تغيير كبير.

فما حدث له حدث الآن للضابط، ربما يمضي هذا إلى حده الأقصى. ربما كان الرحالة الغريب قد أعطى الأمر للقيام بذلك، كان هذا إذن انتقامًا. فحتى دون أن تصل معاناته إلى نهايتها، كان الانتقام قد بلغ أوجه، فتبدت هنا ضحكة واسعة صامتة على وجهه و لم تختف.

لكن الضابط استدار إلى الآلة، فإذا كان من الواضح من قبل أنه يفهم الآلة جيدًا، فقد يفزع المرء لأسلوب تعامله معها وكيف أطاعته. فما كاد يقترب بيده فقط من الجرافة، حتى ارتفعت وهبطت عدة مرات حتى بلغت الوضع الصحيح لاستقباله، وما أن مسّ حافة السرير فقط حتى بدأ يرتجف؛ لتتجه سدادة اللباد نحو فمه، وقد رأى الجمع كيف أن الضابط في الواقع لم يكن يريد ذلك، لكن التردد استمر للحظة فقط ليستسلم على الفور ويلتقطه.

كان كل شيء جاهزًا، فقط الأحزمة كانت لا تزال معلقة على الجانبين، لكن من الواضح أنها لم تكن ضرورية، ولم يكن الضابط مضطرًا إلى القيد بأحزمة. لكن المحكوم عليه لاحظ انحلال الأحزمة، ورأى أن عملية الإعدام لن تكتمل إلا بربط الأحزمة، فلوح بلهفة للجندي ليركضا لربط وثاق الضابط.

كان الأخير قد مدّ بالفعل قدمًا واحدة لدفع المحرك الذي يؤدي بالرسام إلى الحركة، فلما رأى الرجلين قد أتيا سحب قدمه إلى الوراء وترك نفسه لهما ليقيداه. هنا لم يعد قادرًا على الوصول إلى المحرك، ولم يعثر عليه الجندي ولا المحكوم عليه، وكان الرحالة مصممًا على عدم التحرك.

ولم يكن ذلك ضروريًا فما أن تم قيد الأحزمة حتى بدأت الآلة في العمل، ارتجف السرير، ورقصت الإبر على الجلد، وتأرجحت الجرافة لأعلى ولأسفل. بينما كان الرحالة يحدق منذ فترة قبل أن يتذكر أن عجلة في الرسام كان يجب أن تأز؛ لكن كل شيء كان هادئًا، ولم يكن من الممكن سماع أي أزيز من خلال هذا العمل الهادئ، لم تعد الآلة حرفيًا تجذب الانتباه.

نظر الرحالة إلى الجندي والرجل المحكوم عليه، كان الرجل المدان هو الأكثر حيوية فكان مهتمًا بكل شيء يتعلق بالآلة، وكان ينحني أحيانًا، وأحيانًا ينتصب، وظل رافعًا سبابته ليُظهر للجندي شيئًا ما.

كان الرحالة يستشعر الحرج، وكان مصممًا على البقاء هناك حتى النهاية، لكنه لم يكن ليحتمل رؤية الاثنين لفترة طويلة. فقال: «اذهبا إلى المنزل».

ربما كان الجندي مستعدًا للقيام بذلك، لكن الرجل المدان رأى الأمر كعقاب صريح. فعقد يديه متوسلًا ليتركه هناك، وعندما هزّ الرحالة رأسه ورفض التراجع جثا الآخر على ركبتيه.

رأى الرحالة أن الأوامر لا جدوى منها هنا فشاء أن يمضي إلى هناك لطرد الاثنين. هنا سمع صوتًا مضطربًا أعلى الرسام، فنظر إلى هناك. أيكون عطبًا أصاب أحد التروس؟ لكنه كان شيئًا آخر. فقد ارتفع غطاء الرسام ببطء ثم انفتح تمامًا. وظهرت

أسنة عجلة التروس وارتفعت، وسرعان ما ظهرت العجلة كاملة، فبدا الأمر كما لو أن قوة هائلة كانت تضغط على الرسام حتى لم يعد هناك مساحة لهذه العجلة، فتحولت العجلة إلى حافة الرسام، ليهوى و يسقط منتصبًا بعض الشيء في الرمال ثم رقد هناك. لكن ترسًا آخر كان يرتفع بالفعل ليتبعه العديد، كبير وصغير لا يمكن تمييزها، فقد حدث الشيء نفسه لها جميعًا، اعتقد المرء أن الرسام قد صار فارغًا الآن على أي حال، ثم ظهرت مجموعة جديدة، مجموعة بتروس كثيرة، ارتفعت، سقطت مدويّةً على الرمال، ورقدت هناك.

خلال هذه العملية، كان الرجل المدان قد نسي أوامر الرحالة تمامًا، فقد تملكته السعادة بعجلة التروس، وكان دائمًا ما يسعى للإمساك بواحد منها، وقد حث في نفس الوقت الجندي على مساعدته، لكنه سحب يده رعبًا، لأن ترسًا آخر تبعه على الفور. فأخافه على الأقل في دورته الأولى.

من ناحية أخرى، كان الرحالة قلقًا للغاية؛ فمن الواضح أن الآلة كانت تتحول إلى أطلال، ولم يكن مسارها الهادئ سوى وهمًا. شعر الراحالة بأنه يجب عليه رعاية الضابط الآن لأنه لم يعد قادرًا على الاعتناء بنفسه. وبينما كانت حالة التروس قد استحوذت على اهتمامه التام، كان قد أهمل التعرف على بقية حال الماكينة، ولكن بعد أن خسر الرسام الترس الأخير، انحنى على الجرافة ليواجه مفاجأة جديدة أكثر إزعاجًا.

فالجرافة لم تكتب بل طعنت فقط، ولم يقذف السرير الجسد بل رفعه فقط، وهو يرتجف في الإبر. أراد الرحالة أن يتدخل وربما يوقف الأمر برمته، ولم يكن ذلك تعذيبًا كما أراد الضابط تحقيقه، لقد كان قتلًا فوريًا.

مد يديه، وهنا ارتفعت الجرافة بالجسم المثخن جانبًا، كما من المفترض ألا يحدث عادةً قبل الساعة الثانية عشرة. كان الدم يتدفق في مئة مجرى غير مختلط بالماء، بعد أن تعطلت أنابيب المياه هذه المرة، والآن تعطل آخر شيء، فالجسد لم ينفصل عن الإبر الطويلة، فنزف دمه وتعلق فوق الحفرة دون أن يسقط، فلما كان على الجرافة العودة إلى وضعها القديم، لم يكن قد تخلص بعد من حمولتها، فبقيت فوق

الحفرة.

«ساعداني» صاح الرحالة في وجه الجندي والرجل المحكوم عليه وأمسك قدمي الضابط بنفسه. أراد أن يضغط بجسده على قدمي الضابط، وقد كان على الاثنين أن يمسكا برأس الضابط على الجانب الآخر، وبذا كان سيرتفع ببطء عن الإبر.

إلا أن الاثنين لم يستطعا اتخاذ قرار بشأن المجيء، واستدار الرجل المدان. كان على الرحالة أن يذهب إليهما ويدفعهما بالقوة صوب رأس الضابط. أثناء ذلك رأى رغمًا عنه وجه الجثة، كانت كما هي في الحياة. لم يتم العثور على أي علامة على الخلاص الموعود، فما وجده الآخرون في الآلة، لم يعثر الضابط عليه. فقد زمَّ شفتين بقوة، وكانت عيناه مفتوحتين مفعمتين بالتعبير عن الحياة، كانت نظرتهما هادئة قانعة، وكانت مقدمة الشوكة الحديدية الكبيرة تخترق جبهته.

***

وعندما بلغ الرحالة مع الجندي والمدان خلفه أول منازل المستعمرة، أشار الجندي إلى أحدها وقال: «ها هو المقهى».

في الطابق الأرضي لأحد المنزل كانت هناك غرفة عميقة ومنخفضة كالمغارة، وكانت جدرانها وسقفها قد علق بها أثر دخان، وكانت مفتوحة عن آخرها من ناحية الشارع.

ورغم أن المقهى كان يختلف قليلًا عن منازل المستعمرة الأخرى التي كانت كلها متداعية للغاية باستثناء مباني القصر التابعة لمركز القيادة، فقد ذكره بالآثار التاريخية ليشعر الرحالة بسطوة الزمن الماضي.

اقترب وتبعه رفيقاه، فمر بين طاولات شاغرة وضعت في الشارع أمام المقهى، واستنشق الهواء البارد الممل الآتي من الداخل.

قال الجندي: «لقد دُفن الرجل العجوز هنا، بعد أن رفض رجال الدين دفنه بالمقابر، واحتار الناس لفترة من الوقت في اختيار مكان يواري جسده وفي نهاية المطاف تم دفنه هنا، من المؤكد أن الضابط لم يخبرك عن هذا، لأنه بالطبع كان يشعر بالخجل

الشديد منه، حتى أنه حاول عدة مرات أثناء الليل أن ينبش مدفن الرجل العجوز، لكنه كان يُطارد دائمًا».

«أين القبر؟»

سأل الرحالة الذي لم يصدق الجندي، فركض كل من الجندي والرجل المدان أمامه وأشارا بأيدي ممدودة إلى المكان الذي يجب أن يكون فيه القبر.

وقادا الرحالة إلى الجدار الخلفي حيث كان رواد المقهى يجلسون إلى بعض الطاولات. ربما كان أولئك من عمال الميناء، كانوا رجالًا أقوياء بلحى سوداء قصيرة لامعة، كانوا جميعًا بلا سترات وقد ارتدوا قمصان ممزقة، كانوا فقراء خانعين. وعندما اقترب الرحالة نهض البعض والتصقوا بالحائط ناظرين إليه.

«إنه غريب يبغي رؤية المدفن».

هكذا دار الهمس حول الرحالة. فأزاحوا إحدى الطاولات التي كان يوجد شاهد القبر تحتها؛ كان حجرًا بسيطًا، منخفضًا إلى حد يتيح إخفاءه تحت طاولة، وقد سطرت عليه عبارة بأحرف صغيرة اضطر الرحالة أن يركع لقراءتها.

«هنا يرقد القائد القديم، وقد قام أنصاره الذين كُتب عليهم الآن أن يظلوا مجهولين، بحفر قبره ونصب الشاهد. هناك نبوءة بأن القائد سوف يبعث بعد عدد معين من السنين ليقود أتباعه من هذا المنزل ليحتلوا المستعمرة ثانية؛ فآمنوا وثابروا».

بعدما قرأ الرحالة هذا نهض فرأى الرجال يقفون حوله ويبتسمون كأنهم قد قرأوا النقش معه، فوجدوها تافهة وانتظروا أن يوافقهم رأيهم. تظاهر الرحالة بأنه لم يلاحظ ذلك، ووزع بعض العملات المعدنية عليهم، وانتظر حتى دفعت الطاولة فوق القبر، ليغادر المقهى ويذهب إلى المرفأ.

وكان للجندي والمدان بعض المعارف بالمقهى حالوا بينهما وبين المغادرة. لكن كان عليهما مفارقتهم بسرعة ليركضا وراء الرحالة الذي كان قد بلغ منتصف الدرج الطويل المؤدي إلى القوارب.

ربما أرادا إرغام الرحالة على اصطحابهما معه في اللحظة الأخيرة. بينما كان الرحالة يتفاوض مع ربان حول العبور إلى قارب بخاري، كان الاثنان يمضيان على الدرج في صمت، لأنهما لم يجرؤا على الصراخ.

ولكن عندما نزلا كان الرحالة بالفعل على متن القارب، وكان الربان يحل القارب من البر. ولما كان ما زال بوسعهما القفز إلى القارب، رفع الرحالة من الأرض حبلًا ثقيلًا معقودًا وهددهما به، فمنعهما من القفز.

***

حلم

حلم يوسف «ك» بأنه:

كان يومًا جميلًا أراد «ك». فيه القيام بنزهة على الأقدام. لكن ما أن خطا خطوتين حتى وصل إلى المقبرة. كانت هناك ممرات اصطناعية متعرجة غير عملية، لكنه انزلق فوق إحدى هذه الطرق مثل ماء هادر يحوم في وضع ثابت.

ومن مسافة بعيدة، رأى قبرًا بُني حديثًا فشاء التوقف هناك. كاد هذا القبر يغريه فظن أنه ليس بوسعه الوصول هناك بالسرعة الكافية.

إلا أنه في بعض الأحيان، كان بالكاد يرى تلّ الدفن، فقد كانت تغطيه الرايات، كانت تتمايل وتضرب بعضها بعضًا بشدة؛ لم يستطع رؤية حاملي الرايات، لكن كان الحال بدا كأن هناك الكثير من الاحتفاء.

وبينما كان لا يزال ينظر بعيدًا، رأى فجأةً القبر نفسه بجواره على الطريق، بل خلفه تقريبًا، فقفز على عجل إلى العشب.

وبينما كان الطريق ينطوي تحت خطوته الواسعة، ترنح وسقط على ركبته أمام القبر مباشرة. هناك، خلف القبر وقف رجلان حاملين شاهد قبر.

وما أن ظهر «ك» حتى ألقيا بالحجر إلى الأرض فوقف متسمرًا في مكانه. وفي الحال خرج رجلٌ ثالث من الأدغال عرف «ك» على الفور أنه فنان، لم يكن يرتدي سوى بنطالًا وقميصًا لم يحكم إغلاقه على نحو سليم، ويضع على رأسه قبعة من القطيفة، كان ممسكًا في يده قلمًا رصاصًا مألوفًا، وقد أخذ يرسم به أشكالًا في الهواء أثناء ما كان يدنو منه. بالقلم الرصاص هذا بدأ فوق الحجر. كان الحجر عاليًا للغاية، ولم يكن مضطرًا للانحناء، بل كان عليه الانحناء للأمام لأن القبر الذي لم يكن يريد أن يطأه يحول بينه وبين الحجر. فشبّ على أطراف أصابعه واتكأ بيده اليسرى على سطح الحجر.

وبفضل مهارته المميزة نجح في صنع حروف ذهبية بقلم رصاص عادي، كتب:

«هنا يستريح»، بدا كل حرف متقنًا جميلًا ومنحوتًا بعمق بالذهب الخالص. عندما كتب الكلمتين، نظر إلى «ك». أما «ك» الذي كان حريصًا على متابعة النقش فلم يهتم تقريبًا بالرجل، إنما كان ينظر فقط إلى الحجر.

بدأ الرجل بالفعل في الكتابة مرة أخرى، لكنه لم يستطع، فقد كان هناك ما أعاقه فأنزل القلم واستدار ثانيةً نحو «ك». هنا نظر «ك» أيضًا إلى الفنان ولاحظ أنه في حيرة كبيرة لم يبح بأسبابها.

كانت كل حيويته السابقة قد تلاشت. وهو ما أصاب «ك» أيضًا بالحيرة؛ تبادلا نظرات عاجزة، فقد كان هناك سوء فهم مزعج لم يستطع أحد الخلاص منه. في وقت غير مناسب، بدأ جرس صغير من ضريح بالمدفن يدق، لكن الفنان لوّح نحوه بقبضته فتوقف.

بعد برهة بدأ دق الجرس ثانية، وكان هذه المرة خافتًا للغاية وتوقف في الحال دون أن يطلب منه ذلك؛ فبدا الأمر كأنه اختبار للرنين، فصار «ك» يرثى لحال الفنان، فبدأ ببكاءٍ ونشيجٍ طويل بين اليدين الممدوتتين.

انتظر الفنان حتى هدأ «ك». ولأنه لم يعرف حلًا آخر، قرر مواصلة الكتابة.

كان الخط الصغير الأول الذي رسمه بمثابة خلاص لـ «ك»، لكن من الواضح أن الفنان لم يستطع الكتابة إلا بأكبر قدر من التردد؛ فلم تعد الكتابة جميلة، وبدا أن هناك بالمقام الأول نقصًا في الذهب، فسحب خطًا شاحبًا مهتزًا، وقد أصبح الحرف كبيرًا فقط.

كان حرف هو حرف الـ «ياء»، الذي ما كاد ينتهي منه حتى داس الفنان غضبًا بقدم واحدة في القبر، ليتطاير التراب في كل مكان.

فهمه «ك» أخيرًا؛ فلم يعد هناك وقت لسؤاله. فحفر بكل أصابعه في الأرض التي لم تبد أي مقاومة تقريبًا؛ وبدا كل شيء جاهزًا، فقط قشرة رقيقة من الأرض كانت بنيت في الظاهر، فخلفها مباشرة ظهرت حفرة كبيرة بجدران مائلة سقط فيها «ك» على ظهره بفعل تيار بسيط.

و بينما كان هو بالأسفل محتفظًا برأسه منتصبًا فوق عنقه وصار ينزلق إلى عمق لا يمكن اختراقه، كانت حروف اسمه تتلاحق فوق الحجر بزخارف قوية.

أفاق من نومه سعيدًا بما رأى.

***

قتل الإخوة

لقد ثبت أن عملية القتل قد وقعت على النحو التالي: وقف «شمار»- القاتل - في الساعة التاسعة مساءً في ليلة مقمرة على ناصية الشارع الذي كان على الضحية «فيزه» أن ينعطف إليه بعدما يخرج من الزقاق الذي يقع فيه مكتبه إلى الزقاق الذي كان يسكنه.

كان هواء الليل باردًا ارتجف منه الجميع. لكن «شمار» كان يرتدي فقط حلة زرقاء خفيفة. كما كانت سترته منفتحة، لم يشعر بالبرد، وكان أيضًا في حالة حركة متصلة وهو يحمل سلاح قتل لا يخفيه، وهو سلاح بين الحربة وبين سكين مطبخ.

نظر إلى السكين في مواجهة ضوء القمر؛ فومضت حافتها، لكن «شمار» لم يقنع بذلك، فضربها على حجارة الرصيف ليحدث شررًا. ربما ندم على ذلك. ومن أجل إصلاح الضرر أخذ يمر بها على نعل حذائه مثل قوس آلة الكمان وهو يرتكز على ساق واحدة منحنيًا إلى الأمام وفي الوقت نفسه مستمعًا إلى صوت السكين الصادر عن حذائه، كما كان يستمع كذلك إلى الشارع الجانبي المشؤوم.

Telegram:@mbooks90

لماذا تحمل بالاس كل هذا، وهو يراقب كل شيء من نافذته في الطابق الثاني القريب؟ كان يسبر أغوار الطبيعة البشرية بياقة مرفوعة، وقد شد حزام رداء نومه حول جسده العريض ناظرًا إلى أسفل وهو يهز رأسه.

وعلى بعد خمسة منازل، تقع منه على نحو منحرف، تبدو السيدة «فيزه»، في فراء ثعلب فوق قميص نومها، تترقب وصول زوجها الذي كان قد تأخر اليوم لفترة طويلة على غير العادة.

أخيرًا، دق جرس باب مكتب «فيزه» وهو صوت عالٍ جدًا بالنسبة لجرس باب، ارتفع رنينه فوق المدينة حتى بلغ السماء، وخرج «فيزه»، الذي يجتهد في العمل ليلًا من المنزل هناك، ولم يكن قد ظهر بهذا الزقاق، ولم يعلن عنه إلا الجرس؛ ليبدأ الرصيف في عد خطواته الهادئة. يميل بالاس إلى الأمام؛ فلا يجب أن يفوته أي شيء. تغلق السيدة «فيزه» نافذتها بعد أن طمأنها رنين الجرس.

جثى «شمار» على ركبتيه، ولما لم يكن مكشوفًا من جسده أي شيء آخر حينئذ فإنه أخذ يضغط وجهه ويديه على الأحجار، وبينما كان كل شيء يتجمد، كان «شمار» يتوهج.

تحديدًا عند الحدود التي تقسم الشوارع توقف «فيزه» معتمدًا عصاه ليمضي إلى الزقاق الجانبي.

كانت عادة مجببة لديه أن يتطلع إلى سماء الليل التي تجذبه، بلونيها الأزرق الداكن والذهبي.

فنظر إليها دون أن يدري، بلا وعي وهو يمسد شعره تحت قبعته المرتفعة؛ لكن لم يكن هناك إشارة لتنبؤه بالمستقبل القريب، وقد ظل كل شيء على حاله بلا معنى له ولا تفسير. وفي الواقع كان من منطق الأمور أن يواصل «فيزه» سيره، إلا أنه كان يمضي إلى سكين «شمار».

«فيزه».

هكذا صرخ «شمار» وهو يشب على أطراف أصابعه وذراعه ممدودة، السكين يهوي بحدة.

«فيزه»..

إن يوليا تنتظر بلا جدوى»»

طعنه «شمار» في يمين الحلق وفي يسار الحلق وثالثًا في عمق البطن.

فإن بقرت بطن جرذان ندَّ عنها صوت كصوت «فيزه».

«تم الأمر».

هكذا قال «شمار» وهو يطيح بسكين ملطخة بالدم، لم يعد بحاجة إليها، صوب واجهة المنزل المجاور.

«طوبى للقتل... للشعور بالارتياح، إنه السمو بتدفق الدم الغريب»

«فيزه»، أيها العشب القديم، صديقي، نديمي، ها هو دمك تشربه أرض الشارع المظلم. لِمَ لمْ تكن مجرد مئانة مليئة دمًا فأجلس عليك فتختفي تمامًا. ليس كل شيء يمكن إدراكه، وليست كل أحلام مزدهرة تنضج، أترك الثقيل يمكث هنا، يستعصي على الركل. ما هذا السؤال الصامت الذي تطرحه؟.

بالاس، وقد طفح كل السم بجسده، يقف في باب بيته المفتوح على مصراعيه:

«شمار» قد رأيث كل شيء، لم أغفل عن شيء.

يتفحص بالاس و«شمار» بعضهما البعض. اكتفي بالاس بذلك، ولم ينته «شمار».

هرعت السيدة «فيزه» إلى هناك مع حشد من الناس على كلا جانبيها، وقد شاخ وجهها من الفزع وانفتح الفراء، لتسقط على «فيزه»، فأما جسدها في ثوب النوم فكان ملكًا لزوجها وأما الفراءالذي طوى الزوجين مثل عشب القبر فقد كان لحشد الناس.

كان «شمار» يعاني من غثيان أخير، ضغط فمه على كتف الشرطي الذي قاده برفق بعيدًا.

***

رسالة من القيصر

لقد أرسل لك الإمبراطور - كما يُقال - أنت، الفرد، التابع البائس، الظل الصغير الهارب من الشمس الإمبراطورية إلى أبعد مدى، أنت تحديدًا أرسل الإمبراطور لك رسالة من فراش الموت.

أمر الرسول بأن يجثو على ركبتيه بجانب الفراش ليهمس بالرسالة في أذنه. كان اهتمامه بها عظيمًا إلى حد أنه أعاد تكرارها في أذنه. وبإيماءة من رأسه أكد صحة ما قيل.

وأمام كل الشاهدين على موته – تم تحطيم جميع الجدران المعوقة وعلى مدى بعيد وقف عظماء الإمبراطورية كحلقة فوق الدرج المتأرجح العريض العالي - أمام جميع هؤلاء كلفَّ الرسول.

شق الرسول طريقه في الحال؛ رجل قوي لا يكل، يمد ذراعه هذه مرةً والأخرى مرةً ليشق طريقه بين الجموع. فإن واجه مقاومة، أشار إلى شارة الشمس فوق صدره، كما أنه كان يحرز تقدمًا لا مثيل له. لكن الجموع كانت غفيرة للغاية ومساكنهم لا نهاية لها.

إنه يفسح لنفسه ميدانًا حرًا، لسوف يطير وسرعان ما تسمع طرق قبضاته الرائعة على بابك. لكن بدلًا من ذلك، كان يجهد نفسه بلا جدوى؛ فكان لا يزال يجول في الأروقة في عمق القصر؛ أروقة لن ينتهى منها أبدًا.

وإذا نجح في ذلك فلن يكسب شيئًا. كان عليه أن يشق طريقه إلى أسفل، وإذا نجح في ذلك فلن يكسب شيئًا. فيجب أن يقطع الأفنية، وبعد الأفنية يأتي القصر الثاني المحيط، ومرة أخرى يلي الدرج أفنية وقصر مرة أخرى. وما إلى ذلك عبر آلاف السنين. فإذا ما هرع أخيرًا للخروج من البوابة الخارجية - ولكن ذلك لم يحدث قط - كانت المدينة الملكية ماثلة أمامه، قلب العالم المكدسة بالرواسب.

لا أحد يمر من هنا، ناهيك عن رسالة رجل ميت، لكنك تجلس إلى نافذتك وتحلم بها عندما يأتي المساء.

***

أحد عشر ابنًا

لي أحد عشر ابنًا؛ الأول دميم للغاية، لكنه جاد وذكي؛ ورغم حبي له كحبى للآخرين عندما كان طفلًا، إلا أنني لا أقدّره كثيرًا. فتفكيره يبدو لي بسيطًا جدًا. فهو لا ينظر يمينًا ولا يسارًا ولا إلى الأمام، فهو يظل يدور في دائرة أفكاره الضيقة أو بالأحرى يدور حول نفسه.

الثاني جميل ونحيف وقوى البنيان، ومن دواعي سروري أن أراه في حلبة المبارزة. هو أيضًا ذكي، لكنه يمتلك أيضًا خبرة بالدنيا؛ فقد رأى الكثير، ولذا بدت أن طبيعة موطنه قد آنست الحديث إليه أكثر من أولئك الذين بقوا بالبيت.

ولكن من المؤكد أن هذه الميزة لا ترجع فقط، ولا حتى بشكل أساسي إلى أسفاره، بل هي بالأحرى واحدة من سمات هذا الابن المتفردة التي يعترف بها الجميع، ومنهم على سبيل المثال، كل من شاء تقليده في فن القفز في الماء الذي كان يتقنه إلى حد العنف.

فكانت شجاعة وطموح هذا المقلد تصلان به إلى نهاية لوح القفز، وبدلًا من أن يقفز، إذا به يجلس فجأة رافعًا ذراعيه معتذرًا.

- وعلى الرغم من كل هذا - يجب أكون أن سعيدًا بالفعل بمثل هذا الطفل - كانت علاقتي به لا تخلو من كدر. فعينه اليسرى كانت أصغر قليلًا من اليمنى وكان كثيرًا ما يغمز بها؛ وما هذا سوى الخطأ البسيط – يقينًا - الذي يجعل وجهه أكثر جسارة عما هو عليه، فلم يجرؤ أحد على مس كيانه الصارم بالتلميح بذم هذه العين الصغيرة الغامزة.

أما أنا – الأب - فإني أفعل ذلك. فليس هذا العيب الجسدي بالطبع هو ما يؤلمني، ولكن اضطرابًا ما في تفكيره يتسق مع شخصه بعض الشيء، وهو سم محير في دمه، شيء ما من عدم القدرة لا يراها سواي على إكمال مسار حياته.

من ناحية أخرى، فإن هذا هو بالضبط ما يعيده إليّ كابن من صلبي، لأن خطأه هذا هو في نفس الوقت خطأ عائلتنا بأكملها و لكنه واضح تمامًا في هذا الابن.

الابن الثالث جميل أيضًا، لكن ليس الجمال الذي يعجبني. إنه جمال المطرب؛ الفم الانسيابي، العين الحالمة، الرأس الذي يحتاج إلى ستار خلفه ليُظهر تأثيره، أما الصدر فبارز على نحوٍ مفرط، والأيدي ترتفع بسهولة وتنسدل بسهولة أكبر، ساقاه مزينتان إلى حد عدم التحمل. وفوق ذلك نبرة صوته غير الممتلئة؛ فهي تخدع للحظة، تجعل المتذوق ينتبه؛ لكنه يلهث بعد ذلك بوقت قصير.

ورغم هذا، وعامةً فإن كل شيء يغري لاستعراض هذا الابن، فإن فضلت أنا الإبقاء عليه سرًا، فلن يفرض هو نفسه، ولكن ليس لأنه يعرف عيوبه، ولكن بدافع البراءة. كما أنه يشعر بالغربة في عصرنا. كما لو كان ينتمي إلى عائلتي، وينتمى كذلك لعائلة أخرى كان فقدها إلى الأبد، فغالبًا ما يبدو محبطًا لا شيء يمكن أن يسعده.

أما ابني الرابع فربما يكون أكثر الجميع حرصًا على علاقته الاجتماعية، إنه ابن حقيقي لعصره، فالكل يفهمونه لأنه يقف على أرض مشتركة معهم ويميل الجميع إلى التواصل معه. وربما من خلال تقدير الجميع له اكتسبت طبيعته بعض الخفة وحركاته بعض الحرية وكانت أحكامه تقبل بأريحية.

والبعض يحبون غالبًا تكرار بعض أقواله، ولكن بعضها فقط؛ لأنها ككل كانت تعاني من الخفة الشديدة.

إنه مثل شخص يقفز بنحو مثير للإعجاب محلقًا في الهواء مثل السنونو، لكنه ينتهي بعد ذلك بلا أمل إلى غبار بائس، إلى لا شيء.

مثل هذه الأفكار تفسد رؤيتى لهذا الابن.

الابن الخامس ودود وطيب، وهو يوعد أقل بكثير مما يوفي، وكان شخصًا غير مهم إلى حد أن المرء يشعر بالوحدة في وجوده ؛ إلا أنه حقق مكانة طيبة إلى حدٍّ ما.

فإذا سئلت كيف حدث ذلك، فلا أستطيع بالكاد الإجابة، فلعل البراءة هي أسهل سبيل لاختراق صخب عناصر هذا العالم، وهو بالفعل بريء، ربما بريء للغاية، ودود تجاه الجميع، ربما مفرط في الود.

أعترف إني لا أشعر بالارتياح إذا مدحه أحد أمامي، فهذا يعني الاستهانة بقيمة الثناء عندما يُمدح شخص يستحق الثناء بشكل واضح، مثل ابني.

ويبدو ابني السادس، للوهلة الأولى على الأقل، أنه أكثرهم عمقًا. إلا أنه ثرثار؛ لذلك كان التعامل معه ليس بالأمر السهل.

فإذا هُزم، انهار في حزن لا يمكن الخلاص منه، أما إذا كان صاحب الكعب الأعلى، فإنه يحافظ على هذا بالثرثرة. إلا أنني لا أنفي عنه شغفه بإنكار الذات؛ فهوغالبًا ما يشق طريقه من خلال التفكير في وضح النهار كما لو كان في حلم.

دون أن يمرض – بل على العكس من ذلك، فهو يتمتع بصحة جيدة – كان يتعثر أحيانًا، خاصة عند الغسق، لكنه لا يحتاج إلى أي عون، ولا يسقط. ربما يكون السبب في هذه الظاهرة هو نموه البدني، فهو طويل جدًا مقارنةً بسنه.

وهذا ما يجعله غير جذاب ككل، رغم تفاصيل جسده الجميلة اللافتة للنظر، منها على سبيل المثال اليدان والقدمان. أما ما هو غير جذاب فجبهته أيضًا؛ لأنها على نحو ما تعاني من تقلص البشرة وفي تكوين العظام.

قد ينتمي الابن السابع لي أكثر من الآخرين كافة. والعالم لا يعرف كيف يقدره، لأنه لا يفهم نوع مزاحه المميز. وأنا لا أبالغ في تقديره، فأنا أعلم أنه تافه بما فيه الكفاية، فإن لم يكن العالم قد ارتكب خطأ آخر سوى عدم معرفة كيفية تقديره، فسوف يظل بلا عيب.

لكني لا أشعر بافتقاد هذا الابن داخل الأسرة، فهو يثير الاضطراب والرهبة من التقاليد على حدٍّ سواء، كما يضيف كليهما على الأقل من ناحية شعوري إلى كلٍّ غير قابل للجدل.

لكنه هو نفسه لا يعرف ما يجب أن يفعله بكل هذا؛ فهو لن يستطيع دفع عجلة المستقبل رغم أن طريق هذه العجلة مشجع للغاية ومفعم بالأمل، فكم تمنيت أن ينجب أطفالًا وهؤلاء.ينجبون أطفالًا آخرين.

وللأسف لا يبدو أن هذه الرغبة سوف تتحقق، فرغم حالة رضا عن الذات غير مرغوب فيها، وهو ما أفهمه وهو ما يتناقض بشكل كبير مع أحكام من حوله، فإنه يعيش حياته منفردًا ولا يهتم بالفتيات ولا يفقد مزاجه الجيد أبدًا.

ابني الثامن هو ابن معاناتي، ولا أعرف سببًا لهذا. وهو ينظر إليّ بغرابة، ومع ذلك أشعر بعلاقة أبوية وثيقة تربطني به، وكان الزمن هو صاحب الفضل في ترسيخ الكثير من الأمور الطيبة؛ إلا أنني كنت أشعر في الماضي بقشعريرة تعتريني لمجرد التفكير فيه.

لقد شق طريقًا خاصًا به، وقطع كل علاقاته بي.

ويقينًا فإنه سوف ينجح برأسه العنيد وجسده الرياضي الصغير في كل أموره- ولم يكن يعاني إلا من ضعف بساقيه منذ كان صبيًا، ولكنه استطاع التغلب على ذلك.

وغالبًا ما ما كِنت تنتابني الرغبة في إعادة التواصل معه مرة أخرى وسؤاله عن أحواله ولماذا يقاطع والده وماذا ينوي في واقع الأمر، لكنه الآن بعيد جدًا وقد مر زمن طويل بالفعل ليظل الأمر كما كان عليه.

سمعت أنه الوحيد من أبنائي الذي التحى، وهذا أمر ليس محببًا لمثل هذا الرجل القصير بالطبع.

ابني التاسع أنيق للغاية ويتمتع بمظهر جميل يجذب يقينًا أنظار النساء.

إنه حلو إلى حد أنه في بعض الأحيان يمكنه إغرائي، وأنا أعلم أن قطعة من الإسفنج المبلل تكفي لمسح كل هذا البريق المتسامي.

لكن ما يميز هذا الصبي هو أنه لا يتحرك تلبية لغواية على الإطلاق؛ بل إنه يكتفي بأن يستلقي على الأريكة طوال حياته مضيعًا وقته في النظر إلى سقف الغرفة بل إنه يفضل الاحتفاظ بنظراته خلف جفونه.

فإذا ما كان على هذه الحال التي يفضلها، فإنه يحب الكلام ولا يتكلم بسوء، فيتحدث باقتضاب ووضوح ولكن فقط ضمن حدود ضيقة، فإن تجاوزها، وهو أمر لا

يمكن تفاديه بسبب ضيق هذه الحدود، يصبح كلامه فارغًا تمامًا. وكان أحدهم يأمل إن هو لوح له أن يلحظ الإشارة بتلك النظرة التي يغشاها النوم.

يعتبر ابني العاشر شخصية غير سوية. لا أريد أن أنكر هذا الخطأ تمامًا، ولا أريد أن أؤكده تمامًا.

والأكيد هو أن من يراه يقترب في احتفال يتجاوز عمره بكثير، في حُلة مغلقة بإحكام دائمًا، بقبعة سوداء عتيقة لكنها معتنى بها عناية فائقة، وبوجه جامد وذقن بارزة قليلًا وجفون تنتفخ بشدة فوق عينيه، وبفم يغطيه أحيانًا بإصبعين - فمن يراه على هذا النحو كان يفكر:

هذا منافق لا حدود له، لكن الآن يمكنك سماعه يتحدث، منطقي بحذر بشكل مفاجئ، إحباط الأسئلة بالحيوية الخبيثة، في مراسلات مدهشة وطبيعية وسعيدة مع العالم ككل، المراسلات التي بالضرورة تشد الرقبة وترفع الجسم. لقد اجتذب بقوة الكثيرين ممن يعتقدون أنهم أذكياء جدًا، ولهذا السبب، كما يعتقدون، تم صدهم بسبب مظهره، فقد جذبه بشدة كلامه. ولكن الآن هناك من يترك مظهره غير مبالٍ، لكن كلامه يبدو لهم نفاقًا.

أنا كأب، لا أريد هنا أن أقرر، لكن يجب أن أعترف بأن آخر من فصلوا في الأمر، كانوا على أية حال أكثر جدارة بالملاحظة من السابقين.

ابني الحادي عشر رهيف الحس، وربما يكون أضعف أبنائي، إلا أن ضعفه مخادع. أي أنه يمكن أن يكون قويًا وحازمًا في بعض الأحيان، إلا أن الضعف ظل سمته الأساسية على نحو أو آخر.

لكنه ليس ضعفًا مخجلًا، ولكنه شيء يبدو كضعف على أرضنا هذه فقط. أليس الاستعداد للطيران على سبيل المثال ضعفًا أيضًا لأنه يعتبر تأرجحًا وعدم حسم ورفرفة؟ وشيء من هذا القبيل يبديه ابني. وهذه الصفات بطبيعة الحال لا ترضي الأب؛ فمن الواضح أنها تستهدف القضاء على الأسرة.

فهو ينظر إلي أحيانًا كما لو كان يقول: «سآخذك معي، يا أبي».

فأفكر: «ستكون آخر من أثق به». ويبدو أن نظرته تقول مرة أخرى:

«على الأقل أحب أكون الأخير».

هؤلاء هم الأبناء الأحد عشر.

***

المدافع

لم أكن متأكدًا مما إذا كان لدي مدافعون، لم أستطع معرفة أي شيء محدد عن هذه المسألة، كل الوجوه كانت رافضة، فمعظم الأشخاص الذين أتوا نحوي والذين التقيت بهم مرارًا في الممرات بدوا كأنهم نساء عجائز بدينات، يرتدين مآزر واسعة مخططة باللونين الأزرق الداكن والأبيض تغطي أجسادهن بالكامل، وأخذن يمسحن على بطونهن ويستدرن بهدوء هنا وهناك. فلم أستطع حتى معرفة ما إذا كنا في محكمة.

فبعض الأمور تؤيد ذلك، وكثير غيرها عارضته. وتجاوزًا عن كل التفاصيل فإن ما ذكّرني على الأغلب بأنها محكمة كان هدير يمكن سماعه باستمرار من بعيد، ولا يمكن معرفة الاتجاه الذي صدر عنه، وقد عمّ جميع الغرف حتى أنه كان يمكن افتراض أنه صدرمن أي مكان، أو ما بدا أكثر صحة، أن المكان الذي تصادف وجودى فيه كان هو المكان الفعلي لهذا الهدير، لكن هذا كان يقينًا وهمًا لأنه جاء من بعيد.

هذه الممرات الضيقة بقباب بسيطة، ومنعطفات بطيئة، بأبواب عالية شحيحة الزخرف، بدت كأنها قد تم إنشاؤها من أجل الصمت العميق؛ فكانت كممرات متحف أو مكتبة.

لكن إذا لم يكن ذلك محكمة، فلماذا كنت أبحث عن مدافع هنا؟ لأنني كنت أبحث عن محامٍ في كل مكان، فهناك احتياج إليه في كل مكان، نعم.. والاحتياج إليه في المحكمة هو أقل من أي مكان آخر، لأن المحكمة تنطق حكمها وفقًا للقانون، هكذا يُفترض.

إذا افترض المرء أن هذا يتم بشكل غير عادل أو تافه، فستصبح الحياة مستحيلة، وعلى الناس أن يثقوا في المحكمة التي تفسح هناك مساحة حرة لجلالة القانون، فهذه هي مهمتها الوحيدة، ولكن في القانون نفسه كل شيء هو اتهام ودفاع وحكم، والتدخل الشخصي هنا سيكون تدنيسًا للمقدسات.

والحال هنا يختلف عن وقائع الحكم، فهذا يتأسس على التحري هنا وهناك، لدى

الأقارب والغرباء، والأصدقاء والأعداء، لدى الأسرة وفي الأماكن العامة، في المدينة والقرية، بإيجاز في كل مكان.

فمن الضرورة الملحة هنا أن يكون هناك مدافعون، مدافعون بأعداد كبيرة، أفضل المدافعين، أحدهم قريب من الآخر، كجدار حي، لأن حركة المدافعين بطبيعتهم صعبة، لكن المدعين، هؤلاء الثعالب الذكية، هؤلاء الضباع الذكية، هذه الفئران غير المرئية، تتسلل عبر أصغر الثغرات، تندفع بين سيقان المدافعين. لذلك وجب الحذر.

لهذا السبب أنا هنا، أقوم بجمع المدافعين، لكنني لم أجد واحدًا حتى الآن، فقط النساء المسنات يأتين ويذهبن مرارًا وتكرارًا؛ فإذا لم أبحث، فسوف أصاب بالكسل.

أنا لست في المكان المناسب، وللأسف لا أستطيع تجاهل الانطباع بأنني لست في المكان المناسب. فعلي أن أكون بمكان يجتمع فيه جميع أنواع الناس، من مناطق مختلفة، من جميع الطبقات، من جميع المهن، من مختلف الأعمار، فيجب أن تتاح لي الفرصة للاختيار بعناية من بين العديد من الأشخاص المناسبين، الودودين، أولئك الذين يهتمون بي.

وقد يكون المعرض السنوى الكبير هو الأفضل لهذا الغرض. وبدلًا من ذلك، أتجول في هذه الممرات، حيث يمكن رؤية هؤلاء النساء المسنات فقط، وليس الكثير منهن أيضًا، ودائمًا نفس الحال وحتى هؤلاء البعض القليل، رغم بطئهم لا يسمحن لي بالتعرف عليهن، بل يبتعدن عني، فيحُمن مثل غيوم مطر، منشغلات تمامًا بمسائل غير معروفة.

لماذا أهرع إلى مبنى ما كالأعمى، دون أن أقرأ ما كتب فوق بوابته، فأقتحم الممرات مباشرة لأستقر هنا بمثل هذا العناد، فلا أتذكر أنني مررت أمام هذا المبنى وارتقيت درجه في أي وقت مضى.

إلا أنه لا يُسمح لي بالعودة، فإضاعة الوقت والاعتراف بمسلكي الخاطئ سيكون أمرًا لا أطيقه.

كيف؟ فنزول درجات سلم في هذه الحياة القصيرة السريعة التي يرافقها هدير

مزعج هو أمر محال.

فالزمن الممنوح لك قصير جدًا إلى حد أنك إذا خسرت ثانية منه تكون قد فقدت بالفعل حياتك كلها لأن زمنها ليس أطول، بل هي بطول هذا الوقت الذي تخسره.

فإن كنت قد بدأت طريقًا، فواصل ذلك تحت كافة الظروف، فليس بوسعك إلا أن تفوز، فأنت هنا لا تتعرض لخطر، ربما تسقط في النهاية ولكن إذا نكصت على عاقبيك بعد الخطوات الأولى ونزلت الدرج، تكون قد هويت من البداية، ليس ربما، بل يقينًا.

فإن لم تعثر على أي شيء هنا في الممرات، فافتح الأبواب، فإن لم تجد أي شيء خلف هذه الأبواب، فهناك طوابق أخرى، فإن لم هناك أي شيء، فلا حرج، فاستدر لتصعد درجات أخرى من جديد. فطالما أنك لم تتوقف عن الصعود، فإن الدرجات لن تتوقف، بل إنها تنمو صعودًا تحت أقدامك الصاعدة.

***

المحامي الجديد

لدينا محام جديد هو د. بوسيفالوس. وهو بمظهره يذكرنا قليلًا بالوقت الذي كان يعيش فيه الإسكندر المقدوني.

وأصحاب الخبرة في هذا المجال جديرون بملاحظة بعض الأحوال، فقد رأيت مؤخرًا حاجب محكمة بسيط للغاية على بسطة الدرج، وقد أخذت عينه كخبير منتظم في هذا السبق تحدق مدهشة في المحامي وهو يرفع ساقه ويتنقل من خطوة إلى أخرى يصدر عنها صدى على الرخام.

عامةً، كان بارو قد وافق على قبول بوسيفالوس. فقد رأى ببصيرة مدهشة أن بوسيفالوس يعاني من النظام الاجتماعي الحالي ولهذا السبب، إضافةً إلى أهميته التاريخية العالمية، فإنه يستحق الترحيب به على كل حال.

اليوم لا أحد يستطيع أن ينكر عدم وجود الإسكندر العظيم. فالبعض يعرف كيف يقتل، ولا يفتقر إلى المهارة لإصابة الصديق برمح عبر مائدة الوليمة، ومقدونيا تضيق بكثيرين يلعنون فيليب الأب، لكن لا أحد.. لا أحد يستطيع أن يقود إلى الهند.

حتى في ذلك الحين كان لا يمكن الوصول إلى أبواب الهند، لكن وجهتها كان رسمها سيف الملك.

والآن تغيرت وجهة الأبواب التي نُقلت إلى موضع أبعد وأعلى؛ لا أحد يشير إلى الوجهة. كثيرون يحملون سيوفًا ولكن فقط للتلويح بها لتتشتت النظرة التي تحاول تتبعها.

ربما هذا هو السبب في أنه من الأفضل حقًا أن ينغمس المرء في كتب القانون، كما فعل بوسيفالوس.

وهو يقرأ بحرية وأريحية صفحات عن صلابة الفارس، تحت ضوء المصباح الهادئ بعيدًا عن ضجيج معركة الإسكندر، مقلبًا أوراق كتبنا القديمة.

***

أمام القانون

أمام باب القانون وقف حارس. يأتي رجل من الريف إلى هذا الحاس طالبًا الدخول إلى القانون، لكن الحارس يقول إنه لا يمكنه السماح له بالدخول الآن.

فكر الرجل في الأمر ثم سأل عما إذا كان سيسمح له بالدخول فيما بعد، قال الحارس: «هذا ممكن، لكن ليس الآن».

فلما كان باب القانون مفتوحًا كالعادة وقد انتحى الحارس جانبًا، انحنى الرجل لينظر إلى الداخل من خلال الباب.

عندما لاحظ البواب ذلك ضحك وقال: «إن كان هذا يغريك إلى هذا الحد، فحاول أن تدخل رغم منعي لك، لكن لاحظ؛ أنا قوي ولستُ سوى أسفل الحراس، فهناك حراس يقفون أمام كل قاعة، كلٌّ منهم أقوى من الآخر.

وحتى أنا لا أستطيع حتى تحمل رؤية الحارس الثالث»

لم يكن رجل الريف يتوقع مثل هذه الصعاب، فقد كان يعتقد أن الوصول إلى القانون متاح الجميع، إلا أنه عندما ألقى نظرة فاحصة على الحارس بمعطف الفراء وأنفه الكبير المدبب ولحيته التترية السوداء الطويلة الدقيقة، قرر الانتظار حتى يحصل على إذن الدخول.

منحه الحارس مقعدًا صغيرًا وسمح له بالجلوس إلى جانب الباب. فجلس هناك أيامًا وسنوات، وقام بمحاولات كثيرة للقبول وأجهد الحارس بطلبه، وقد أجرى الحارس معه في كثير من الأحيان استجوابات موجزة، فسأله عن موطنه وأمور أخرى كثيرة، لكنها كانت أسئلة إذعان كتلك التي يطرحها السادة العظماء، وفي النهاية كان يكرر أنه لا يمكنه السماح له بعد بالدخول.

كان الرجل قد جهز نفسه بالكثير من أجل رحلته، فحاول بكل ما حمله مهما كانت قيمته، رشوة الحارس. وكان هذا الأخير يقبل كل شيء، لكنه كان يقول: «أنا أقبل هذا فقط حتى لا تظن أنه فاتك شيء».

على مر السنين ظل الرجل يراقب الحارس بنجو شبه مستمر. وقد نسي الحراس الآخرين، ظنًا منه أن هذا الأول هو العقبة الوحيدة التي تعرقل دخوله إلى القانون.

في السنوات الأولى أخذ يلعن الصدفة المؤسفة، بصوت عالٍ وبلا اكتراث، بعد ذلك عندما كبر، أخذ يغمغم ثم أصبح طفوليًا، فلما أدرك تكاثر البراغيث في طوق فرائه أثناء سنوات تفحصه للحارس، طلب أيضًا من البراغيث مساعدته لتغيير رأي الحارس.

في النهاية كلَّ بصره فلم يعد يدرك إن كان ما حوله يزداد ظلامًا حقًا أم أن عينيه تخدعانه.

لكنه أدرك هنا وميضًا في الظلام لا ينطفئ، فجٌ من باب القانون. لم يعد في عمره الكثير، قبل موته تجمعت كل تجارب الزمن في رأسه حول سؤال لم يكن طرحه على الحارس بعد.

ولأنه لم يعد يستطيع أن ينتصب بجسده المتصلب فقد أشار إليه. فكان على الحارس أن ينحني للغاية نحوه فالاختلاف في الحجم كان قد تغير كثيرًا إلى غير صالح الرجل.

«ما الذي تريد أن تعرفه الآن؟»

هكذا سأله الحارس، «أنت لا تشبع».

فقال الرجل: «الكل يسعى إلى القانون، فلماذا لم يسأل أحد سواي طوال كل هذه السنوات؟»

أدرك الحارس أن الرجل قد شارف على نهايته بالفعل، ولكي يصل إلى سمعه المتلاشي صرخ في وجهه: «لا يمكن لأحد أن يدخل هنا لأن هذا الباب كان مخصصًا لك أنت فقط، والآن سأذهب لأغلقه».

***

ضباعٌ وعرب

نصبنا خيامنا في الواحة، كان الرفاق قد ناموا، مرّ بي عربي طويل القامة أبيض اللون، كان قد اهتم بشأن الإبل وذهب لينام.

استلقيت على ظهرى على العشب. أردت النوم، لم أستطع؛ فقد كان هناك ضبع يعوي عن بُعد، فجلست منتصبًا مرة أخرى.

وبقدر هذا البعد كان قد تحلق حولى فجأة قطيع من ضباع، بعيون تتلاشى لامعة كالذهب الخابي وأجساد نحيلة تحت وطأة ضربات سياط منتظمة سريعة.

جاءني أحدها من الخلف، ودفع نفسه تحت ذراعي ملتصقًا بي كأنه بحاجة إلى دفء، ثم خطا أمامي وتحدث معي وجهًا لوجه تقريبًا:

«أنا أقدم الضباع في كل مكان، أنا سعيد لأني ما زلت قادرًا على الترحيب بك هنا. وكنت كدت أفقد الأمل؛ لأننا كنا ننتظرك من زمن طال أمده، انتظرتك أمي وأمها، ثم كل أمهاتها حتى الأم الأولى لكل الضباع.. صدقني».

قلت: «هذا يدهشني»، وقد نسيت إشعال كوم الحطب الذي أعددته لإبعاد الضباع، وأردفت: «أنا مدهش كثيرًا لسماع ذلك، إنها الصدفة هي ما أتت بي من أقصى الشمال وقد بدأت رحلة قصيرة، ماذا تريد أيها الضبع؟»

وكأن هذا القول الودود قد شجع الضباع، فقد صارت حلقتها حولي أكثر قربًا، وصارت جميعها تنفخ أنفاسًا متلاحقة.

بادر الأكبر سنًا: «نعلم، أنك أتيت من الشمال، حيث تكمن آمالنا. فهناك فكر لا يوجد هنا بين العرب، فمن هذا القطرسة البليدة، كما تعلم لن تخرج شرارة فهم، إنهم يقتلون الحيوان ليأكلوه ويحتقرون الجيف».

قلت: «لا تتحدث بصوت عالٍ، هناك عرب ينامون بجوارنا».

قال الضبع: «أنت أجنبي حقًا، وإلا كنت عرفت أنه لم يحدث في تاريخ العالم أن خشي ضبعٌ عربيًا. فهل نخاف نحن منهم؟ أليس من سوء الحظ أننا طردنا لنعيش

بين مثل هؤلاء الناس؟»

قلت: «قد يكون الأمر كذلك، قد يكون، فأنا لا أفترض أن أحكم على أمور بعيدة عن، ويبدو أن هذا نزاع قديم للغاية، ربما جرى هذا مجرى الدم، لذلك قد ينتهي الأمر فقط بالدم».

قال الضبع العجوز: «أنت ذكي للغاية».

كان الجميع يتنفسون على نحو أسرع، برئات متسارعة الخفق، على الرغم من حقيقة أنها ظلت واقفة بمكانها، وأفلتت من الأفواه المفتوحة رائحة لاذعة، لا يمكن احتمالها إلا إلى حين بأفواه مغلقة.

«أنت ذكي جدًا، فما تقوله يتفق مع تعاليمنا القديمة، لذلك نستحل دماءهم لينتهي النزاع».

هتفتُ بعنف أكثر مما أردت: «أوه .. سوف يدافعون عن أنفسهم، سوف يقتلونكم قطعانًا وأسرابًا بنيران بنادقهم».

قال: «إنك تسيء فهمنا بإنسانية لا تُفتَقد أيضًا في أقصى الشمال، فإننا لن نقتلهم. فليس بالنيل ماء يكفي لنغتسل به، إننا سنهرب من مجرد رؤية أجسادهم الحية إلى هواء أنظف، إلى الصحراء التي هي لهذا السبب بيتنا».

وكان أن الضباع المحيطة بي، التي انضمت إليها أخرى كثيرة من أماكن بعيدة أثناء ذلك، قد وضعت رؤوسها بين سيقانها الأمامية وأخذت تنظفها بأقدامها، فبدا الأمر كأنها تحاول إخفاء أمرٍ كريهٍ، كان فظيعًا إلى حد أنني أردت الهروب من حصارهم، بقفزة واسعة.

سألته وأنا أحاول النهوض: «ماذا تنوي أن تفعل؟» لكنني لم أستطع؛ فقد عض حيوانان صغيران منهم مؤخرة سترتي وقميصي؛ فكان عليّ أن أبقى جالسًا. قال الضبع العجوز موضحًا بجدية: «لقد أمسكا بذيلك، إنهما يعربان عن تكريمك».

«يجب أن يتركاني» هكذا صرختُ، مرةً تجاه العجوز، والأخرى صوب الصغيرين.

فقال العجوز: «بالطبع سيفعلان ذلك إن أنت طلبت، لكن الأمر سيستغرق بعض الوقت، لأنهما وفقًا للعرف، فقد غرزا أنيابهما بعمق وعليهما أولًا أن يفصلا أنيابهما عن بعضها البعض على مهل، وأثناء ذلك فلتستمع إلى طلبنا».

فقلت: «لم يجعلني مسلكك أكثر تقبلًا له».

قال: «لا تدع سوء مسلكنا يحرمنا من المكافأة».

وكان الآن وللمرة الأولى قد استعان بنبرة الشكوى ليدعم صوته الطبيعي:

«نحن حيوانات مسكينة، لا نملك إلا أنيابنا لكل ما نريد القيام به، جيدًا وسيئًا، كل ما تبقى لدينا هو الأنياب».

سألته بنبرة هادئة بعض الشيء: «ماذا تريد إذن؟»

فهتف: «أيها السيد».

أخذت كل الضباع تعوي، فبدا لي هذا من بعيد كأنه لحن.

«أيها السيد، عليك أن تنهي النزاع الذي قسم العالم. فكما أنت قد وصف قدماؤنا من سيفعل ذلك، يجب أن ننتزع السلام من العرب، هواءً صالحًا للتنفس، أن يتطهّر منهم المشهد المحيط بالأفق؛ لا صرخة نواح لحَمَلٍ قتله العرب فلينفق الحيوان كافة بهدوء، لنتجرع دمه حتى آخر قطرة دون إزعاج ونطهره حتى العظم.

فنحن نريد الطهارة، لا شيء سوى الطهارة».

هنا بكت جميعها وعلا نشيجها:

«كيف يمكنك أن تتحمل ذلك في هذا العالم، أيها القلب النبيل والأحشاء الحلوة؟ فالوَسَخ هو بياضهم والوسخ هو سوادهم، ولحاهم هي الرعب. على المرء أن يبصق لرؤية لحاظ عيونها، فإن رفعوا ذراعهم استعر الجحيم في إبطهم.

لذلك سيدي، إذن سيدي العزيز، فبعون أياديك الثرية، وبعون جميع الأثرياء، نقطع أعناقهم بهذا المقص».

وبإيماءة من رأسه أتى ضبع يحمل على نابه مقصًا صغيرًا يعلوه صدأ قديم.

«أخيرًا المقص، هذا كل ما في الأمر».

هكذا صاح العربي دليلُ قافلتنا الذي كان تسلل إلينا مغالبًا الريح ملوحًا بسوطه الضخم.

كان كل شيء قد جرى بسرعة، لكن هذه الحيوانات الكثيرة تجمعت معًا على بعد مسافة ما متلاصقةً جامدة الحركة حتى أنها بدت كأنها قطيع تافه متخبط ضل الطريق.

«هكذا سيدي، لقد رأيتَ وسمعتَ أيضًا هذه المسرحية».

هكذا قال العربي وضحك فرحًا بقدر ما سمح له تحفظ قبيلته.

فسألته: «أنت على علم إذن بما تريد الحيوانات؟»

قال: «بالطبع سيدي، هذا أمر شهير للغاية؛ فما دام هناك عرب سوف يظل هذا المقص يطوف الصحراء ويتنقل معنا حتى نهاية الأيام.

وهو يُعرض على كل أوروبي من أجل إنجاز العمل العظيم. فكل أوروبي هو تحديدًا الشخص الذي يبدو لهم أنه مكلف بهذا. هذه الحيوانات لديها أمل عبثي. حمقى، أولئك حمقى حقيقيون. لهذا نحبها، إنها كلابنا وهي أجمل من تلك التي عندكم. انظر، لقد نفق جمل بالليل، فأحضرته إلى هنا».

وقد جاء أربعة حمالين وألقوا الجثة الثقيلة أمامنا. فما أن استقرت حتى علا عواء الضباع، فجاءت كأن كلًا منها قد تم جره بالحبال على نحو لا تستطيع له دفعًا، وهي تتعثر وتتشبث بالأرض. وقد نسيتْ العرب، ونسيت كراهيتهم بعد أن فُتنت بوجود الجثة التي تصاعدت منها رائحة النتن بشدة. كان أحدها قد جُر من رقبته وعثر على حبل الوريد أول ما غرز نابه.

لينفجر مثل مضخة صغيرة فائرة محاولة يائسة إخماد حريق قاهر، فصارت كل خلجة بجسده تتقلص وتنتفض في مكانها.

وكان أن اعتلى جميعها الجثة وجثموا فوقها، مؤدية العمل نفسه.

هنا ضرب فوقها الدليل بسوطه الحاد بقوة طولًا وعرضًا، فرفعت رؤوسها شبه مذهولة وشبه مغشي عليها لترى العرب واقفين أمامها. وقد كان عليها الآن أن تشعر بالسوط على وجوهها، تراجعت على قدم وساق وهي تبتعد للخلف.

لكن دم البعير كان تجمع بالفعل كالبرك يتصاعد منه دخان، وكانت الجثة قد تمزقت في عدة مواضع. لم تستطع الضباع الصبر، فأتت هناك مرة أخرى. مرة أخرى رفع الدليل سوطه، فأمسكث بذراعه.

قال: «أنت محق سيدي، سندعها لعملها وقد حان وقت انطلاقنا. وقد رأيتَها، حيوانات رائعة، أليس كذلك؟ ورأيت مدى كراهيتها لنا».

***

جوزفين المغنية

أو

شعب الفئران

مطربتنا تدعى جوزفين. من لم يسمعها لم يعرف قوة الغناء. ليس هناك من لم يفتن بغنائها، والأمر الذي جعل قيمتها أكثر أهمية هو أن جنسنا لا يحب الموسيقى ككل.

فالسلام الصامت هو موسيقانا المفضلة. وحياتنا صعبة حتى لو حاولنا التخلص من كل المخاوف اليومية، لم يعد بإمكاننا أن نرتقي بأنفسنا إلى أشياء بعيدة عن بقية حياتنا، كالموسيقى مثلًا.

لكننا لا نشكو كثيرًا من هذا، فنحن لم نصل حتى حد ذكاء عملي نحتاجه حقًا وبشدة ونعتبره من ميزاتنا الكبرى وبابتسامة ماكرة فإننا عادة ما نعزي أنفسنا في كل شيء حتى لو كان علينا لمرة واحدة - لكن هذا لم يحدث - أن نحصل على الرغبة في السعادة التي ربما تنبع من الموسيقى.

إنها جوزفين فقط هي من تصنع الفارق. فهي تحب الموسيقى وتعرف كيف تنقلها. إنها الوحيدة التي ستختفي الموسيقى بوفاتها - من حياتنا - من يدري إلى متى.

Telegram:@mbooks90

لقد فكرت كثيرًا في كيفية تعاملها مع هذه الموسيقى، فنحن غير موسيقيين على الإطلاق، فكيف لنا أن نفهم غناء جوزفين أو بما أن جوزفين تنكر فهمنا لذلك، فإننا نحن على الأقل نعتقد أننا نفهمه.

أبسط إجابة هي أن جمال هذا الغناء رائع إلى حد أن أكثر العقول بلادة لا يستطيع مقاومته، لكن هذه الإجابة ليست مرضية. فإذا كان الأمر كذلك حقًا، فلابد أن يشعر المرء قبل هذ الغناء ودومًا بإحساس أنه غير عادي، والشعور بأن شيئًا ما يخرج من هذه الحنجرة الذي لم نسمعه من قبل وأننا لا نملك حتى القدرة على سماعه، هو شيء لا يقدر عليه سوى جوزفين ولا أحد غيرها.

وهذا تحديدًا هو ما أعتبره أنا غير صحيح، فأنا لا أشعر به ولم ألاحظ أي شيء من هذا القبيل لدى الآخرين كذلك. ففي دوائرنا المقربة، نعترف لبعضنا البعض صراحةً أن غناء جوزفين بحد ذاته ليس شيئًا غير عادي.

هل هو غناء أصلًا؟ فرغم افتقارنا للموسيقى فإننا لدينا موروث غنائي، فقد كان هناك غناء في أيام شعبنا الخوالي، وهو ما تحكي عنه الأساطير، وحتى الأغاني تم الحفاظ عليها، التي بالطبع لم يعد بإمكان أي شخص الغناء بها. إذن لدينا فكرة عن ماهية الغناء، وهذه الفكرة لا تتوافق في الواقع مع فن جوزفين.

هل هو غناء أصلًا؟ ألا يكون هذا ربما مجرد صفير فقط؟ وكلنا نعرف الصفير، إنه مهارة مميزة لشعبنا أو بالأحرى هو ليس مهارة على الإطلاق بل هو تعبير مميز عن الحياة.

ونحن جميعًا نصفر، لكن بالطبع لا أحد يفكر في الزعم بأنه فن، نصفر دون أن نلحظ هذا، بل دون أن نهتم به، وهناك الكثير منا لا يعرف حتى أن الصفير هو أحد خصائصنا.

فإذا كان صحيحًا، إذن.. أن جوزفين لا تغني، بل تصفر فقط، وربما كما يبدو لي على الأقل، بالكاد تتجاوز حدود الصفير المعتاد - نعم، ربما قوتها لا تكفي حتى لهذا الصفير المعتاد، في حين أنه يمكن لأحد عمال الطرق البسطاء فعل هذا دون عناء طوال يوم بأكمله إلى جانب عمله - إذا كان هذا كله صحيحًا، فسيتم دحض فن جوزفين المزعوم ولكن سيكون من الضروري حل لغز تأثيرها العظيم.

لكن ما تأتي هى به ليس صفيرًا فحسب. فإن أنت وقفت بعيدًا عنها واستمعت إليها، أو على نحو أفضل، إذا اختبرت نفسك في هذا الصدد، إذا كانت جوزفين تغني من بين أصوات أخرى، وإذا حددت لنفسك مهمة التعرف على صوتها، فلن تسمع شيئًا سوى صوتًا عاديًا، يكون واضحًا إلى حد ما بسبب الرقة أو الضعف.

لكن إذا وقفت أمامها، فلن تجد ذلك مجرد صافرة؛ فحتى نفهم فنها، يكون من الضروري ليس فقط سماعها ولكن أيضًا رؤيتها. حتى لو كان هذا مجرد صفيرنا

اليومي، فهكذا تتبدى هنا الميزة بأنه عندما يقف شخص ما لا يفعل شيئًا غير المعتاد.

والحق إن كسر ثمرة جوز ليس فنًا ولذلك لا يجرؤ أحد على دعوة جمهور ليكسر الجوز أمامهم للترفيه عنهم، فإذا فعل ذلك على أي حال وأفلح فيما هدف إليه فلا يمكن أن يكون الأمر مجرد كسر ثمار جوز.

أو أن الأمر تعلق بالفعل بكسر الجوز، لكن اتضح أننا قد أغفلنا هذا الفن لأننا كنا نتقنه بسهولة وأن كسارة البندق الجديدة هذه لا تظهر لنا جوهرها الحقيقي، إلا حيثما يمكن أن تكون ذات أثر نافع، حتى لو كانت أقل مهارة في كسر الجوز أكثر من معظمنا.

ربما يجرى نفس الشيء على غناء جوزفين. ونعجب لما تملكه والذي لا نعجب به في أنفسنا مطلقًا؛ عامةً.. فهى تتوافق معنا تمامًا بشأن النقطة الأخيرة.

كنت هناك ذات مرة عندما لفتت هى انتباه شخص ما إلى الصفير الشعبي، كما يحدث غالبًا، بالطبع و رغم أن هذا كان متواضعًا للغاية، إلا أن جوزفين اعتبرته متجاوزًا للحد.

لم أر قط مثل هذه الابتسامة الوقحة والمتغطرسة كتلك التي ارتسمت على شفتيها في ذلك الوقت وهي التي تبدى ظاهريًا في الواقع رقة مثالية، وهي حساسة بشكل ملحوظ حتى في شعبنا الغني بمثل هذه الشخصيات النسائية، فقد بدت وضيعة تمامًا في ذلك الوقت.

عامةً، فقد تشعر هي كذلك بهذا في الحال من خلال حساسيتها الشديدة وتتماسك. على أية حال، فهي تنفي أية صلة بين فنها وبين الصفير.

أما أولئك المعارضون فيبدون نحوها ازدراءً وربما كراهية غير معلنة. وهذا ليس غروزًا عاديًا لأن هذه المعارضة التي أنضم أنا إليها أحيانًا، تعجب بها يقينًا بما لا يقل عن إعجاب الجمهور، إلا أن جوزفين لا تريد فقط أن تحظى بالإعجاب، ولكن أيضًا أن تحظى بالإعجاب بالطريقة التي حددتها هي بالضبط، فالإعجاب وحده لا يرضيها.

وعندما تجلس أمامها فإنك تفهمها وتتجنب المعارضة؛ فعندما تجلس أمامها تعلم

أنه ما تصفر هي هنا ليس صفيرًا. فنظرًا لأن الصفير هو إحدى عاداتنا الطائشة، فقد يرى البعض أن الصفير يحدث كذلك على مسرح جوزفين؛ ففنها يشعرنا بالراحة، ونحن نصفر لدى شعورنا بالراحة، ولكن في مسرحها لا يصدر صفير إنما يخيم هدوء تام، كما لو كنا نعمنا بسلام نشتاق إليه، وهو ما يحول على الأقل بيننا وبين صفيرنا، فلا نذكره.

هل غناؤها هو الذي يسعدنا أم أنه بالأحرى الصمت المهيب الذي يحيط بالصوت الضعيف؟.

وقد حدث ذات مرة أن شيئًا صغيرًا أحمق شرع يصفر بكل براءة بينما كان جوزفين تغني.

حسنًا، كان هذا بالضبط نفس ما سمعناه من جوزفين، فقد كان هناك بالمقدمة رغم كل الروتين صفير خجول وكان هنا بين الجمهور صفير طفولي لشخص نسي نفسه، وكان من المحال معرفة الفارق، لكننا همهمنا فاسكتنا المشاغب في الحال، رغم أن ذلك لم يكن ضروريًا، لأنه كان يقينًا سيزحف بعيدًا يعتريه الخوف والخجل، بينما بدأت جوزفين في إطلاق صفير الانتصار وهي منفعلة تمامًا وقد فردت ذراعيها واشرأبت بعنقها إلى أقصى مدى.

إنها دائمًا هكذا عامةً، كل شيء صغير، كل صدفة، كل عناد، صدع في الباركيه، اصطكاك أسنان، اضطراب في الإضاءة، كانت تعتبره مناسبة لزيادة تأثير غنائها؛ فهي ترى أنها تغني لآذان صماء، ولا ينقصها حماس وتصفيق، لكنها تعلمت منذ فترة طويلة الاستغناء عن الفهم الحقيقي، كما تراه.

لذلك كان كل إزعاج يوافق هواها؛ فكل ما يعكر صفو غنائها من الخارج، تعتبره تحديًا هينًا. نعم، وهزيمته لا يحتاج نزالًا وإنما من خلال المواجهة دون قتال وهو ما يمكن أن يساهم في تنبيه الجمهور، لا لتعلمه الفهم بل تعلمه الاحترام الواعي.

وقد كانت تستفيد من الحدث الصغير مثلما استفادت من الأحداث الكبيرة. إن حياتنا مضطربة للغاية، فكل يوم يأتي بمفاجآت وقلق وآمال وأهوال ولا يمكن للفرد

أن يتحمل كل هذا إذا لم يعتمد على دعم رفاقه في جميع الأوقات، ليلًا ونهارًا، حتى لو كان ذلك صعبًا جدًا في الغالب؛ فإنه يحدث في بعض الأحيان أن يرتجف ألف رجل تحت عبء كان مقدرًا لحمله فرد واحد فقط.

ثم تعتقد جوزفين أن أجلها قد حان؛ فتقف هناك بالفعل.

كائن رقيق يرتجف بشكل مخيف خاصة أسفل صدرها، وكأنها كانت تجمع كل قوتها في الغناء، وكأن كل ما لديها لا يخدم الغناء بشكل مباشر قد حُرم من كل قوة وكل أسباب الحياة، وكأنها تجردت من كل شيء فاستسلمت لحماية أرواح طيبة، كأنها نَفَس بارد عابر يستطيع القتل، بينما تكون مندمجة تمامًا في الغناء.

ولكنا في مثل هذا المشهد بالذات كنا اعتدنا، نحن المعارضون المزعومون، أن نقول لأنفسنا:

«إنها لا تستطيع حتى أن تطلق صفيرًا، فعليها أن تجهد نفسها بشكل رهيب حتى لا تغني - دعنا لا نتحدث عن الغناء - ولكن عن إجبار نفسها على الصفير المعتاد إلى حد ما».

لذلك يبدو لنا - كما ذكرنا - أن هذا انطباع لا مفر منه، ولكنه عابر، سريع الزوال.

ونحن بالفعل منغمسون في شعور الجموع الذين يستمعون وهم يتنفسون بحرارة وحياء، كتفًا إلى كتف.

ومن أجل جمع هذا الحشد من شعبنا الذي يتنقل دائمًا هنا وهناك لأسباب غير واضحة، صار على جوزفين عادةً أن تفعل أي شيء آخر غير أن تتخذ وضعًا برأس مائل وفم شبه مفتوح، وعيناها تنظران لأعلى مما يوحي بأنها تنوي الغناء.

ويمكنها أن تفعل هذا حيثما تريد، فليس من الضروري أن يكون مكانًا يمكن رؤيته من بعيد، فركن خفي اختير أثناء نزوة مؤقتة عشوائية سيكون مفيدًا بنفس القدر.

وينتشر على الفور خبر عن أنها تنوى الغناء، وسرعان ما تمضي في موكب.

حسنًا، في بعض الأحيان تطرأ عقبات ما. فجوزفين تحب الغناء، خاصة في أوقات

الاضطراب، ويكون هناك من الهموم والصعوبات العديدة ما يجبرنا على الذهاب بعدة طرق، ومهما كانت النوايا حسنة فإنه لا يمكن للناس أن يتجمعوا بالسرعة التي تتمناها جوزفين، وفي هذه المرة تقف هي هناك مرتفعة الهامة لفترة من الوقت دون وجود عدد كافٍ من المستمعين - فتغضب بالطبع، ثم تدمدم بقدميها، وتلعن بطريقة لا تليق بفتاة؛ بل إنها قد تعض.

لكن حتى مثل هذا السلوك لا يضر بسمعتها، وبدلًا من الحد من مطالبها المبالغ فيها، فإن الناس يبذلون جهودهم لتلبيتها، فيبعثون بالرسل لجلب المستمعين وهم يخفون عنها ذلك. ثم يرى المرء حراسًا على الطرق في المنطقة المجاورة يشيرون لمن جاءوا ويحثونهم على الإسراع؛ كل هذا حتى يتجمع في النهاية العدد المسموح به.

ما الذي يدفع الناس لتحمل المشقة من أجل جوزفين؟ سؤال ليس من السهل الإجابة عليه، مثل السؤال المتعلق بغناء جوزفين كما أنه مرتبط به أيضًا.

وهو يمكن حذفه تمامًا ودمجه بالكامل مع السؤال الثاني، إذا زعم أحد - مثلًا - أن الشعب قد استسلم لجوزفين بسبب الغناء دون قيد أو شرط.

لكن هذا ليس هو الحال، فشعبنا لا يعرف الولاء غير المشروط، فهذا الشعب الذي يحب الخبث غير المؤذي والهمس الطفولي والنميمة البريئة، مثل هذا الشعب لا يمكنه الاستسلام دون قيد أو شرط، ربما تشعر جوزفين بذلك أيضًا، وهذا هو ما تحاربه بكل مجهود حنجرتها الضعيفة.

لكن يجب على المرء ألا يذهب بعيدًا في مثل هذه الأحكام العامة، فالناس مخلصون لجوزفين، لكن ليس دون قيد أو شرط، فهو على سبيل المثال، لن يكون قادرًا على الضحك على جوزفين، ويمكن الاعتراف بأن في شخص جوزفين ما يدعو إلى الضحك، ونحن نميل دائمًا إلى الضحك في حد ذاته، ورغم كل بؤس حياتنا، فإننا اعتدنا على الضحكة الهادئة دائمًا، لكننا لا نضحك على جوزفين.

وأحيانًا يتولد لدي انطباع بأن الناس يفهمون علاقتهم بجوزفين بطريقة تجعل

هذا المخلوق الهش، المسكين، المميز بالغناء على نحو ما في رأيهم، فيعتقدون أنهم مؤتمنون عليها ويجب عليهم الاعتناء بها، وسبب ذلك غير واضح لأي شخص، لكنه يبدو حقيقة يجب التمسك بها.

فلا يضحك المرء على ما يؤتمن عليه، فالضحك هنا سيكون خرقًا للواجب؛ إنه أسوأ أنواع الشر الذي يمكن لأكثرنا شرًا أن يلحقه بجوزفين إن قال أحيانًا: «نحن نفقد ميلنا للضحك عندما نرى جوزفين».

لذا فإن الناس يعتنون بجوزفين كأب يرعى طفله وهو لا يدري إن كان الطفل يمد يده الصغيرة راجيًا أو طالبًا.

قد يعتقد المرء أن شعبنا غير مؤهل للقيام بمثل هذه الواجبات الأبوية، لكنه في الواقع، على الأقل في هذه الحالة يؤديها بطريقة مثالية، لا أحد يستطيع أن يفعل ما يمكن للشعب ككل القيام به في هذا الصدد. بالطبع، فاختلاف القوة بين الجمع والفرد هو اختلاف هائل للغاية، فيكفي أن يجذب المحتمي به إلى دفء قربه، ليكون محميًا على نحو كافٍ.

لكن لا يجرؤ المرء على التحدث عن مثل هذه الأشياء إلى جوزفين، لأنها ستقول آنذاك: «أنا لا أهتم بحمايتك».

فنقول لأنفسنا: «نعم، نعم، أنت لا تهتمين». وإلى جانب ذلك، فإن التمرد ليس رفضًا، بل هو يقينًا نوع من امتنان الطفل ورد فعل الأب في تجاهل ذلك.

ولكن الآن هناك يطرأ شيء آخر على الحديث، وهو أمر يصعب تفسيره من خلال هذه العلاقة بين الناس وجوزفين. فلجوزفين رأي معاكس، فهي تعتقد أنها هي التي تحمي الناس، فيُفترض أن غناءها ينقذنا من وضع سياسي أو اقتصادي سيئ، وهو لا يحقق أقل من هذا، فإذا لم يخلصنا من المحنة، فهو على الأقل يمنحنا القوة لتحملها.

إنها لا تقول ذلك بهذه الطريقة أو بأي طريقة أخرى، وهي لا تتحدث كثيرًا على الإطلاق، فهي صامتة لا تشارك الآخرين الثرثرة، ولكن وميض ضوء يشع من عينيها، ويمكن قراءة هذا على فمها المغلق - بينما القليل منا فقط يمكنهم إبقاء أفواههم

مغلقة.

وعند انتشار الأخبار السيئة – التي تتسارع وتيرتها في بعض الأيام، وبينها أخبار شبه حقيقية أو مغلوطة – كانت تنتصب على الفور، بينما كانت متعبة بخلاف ذلك، لتنتصب وتشرئب بعنقها ساعيةً للحصول على نظرة عامة على قطيعها مثلما يفعل الراعي قبل عاصفة رعدية.

يقينًا، يكون للأطفال كذلك متطلبات شبيهة، وهم يطالبون بذلك بأسلوبهم الجامح غير المنضبط، لكن في حالة جوزفين لم يكن هذا بلا مبرر كما هو الحال معهم.

بالطبع هي لم تنقذنا ولم تمنحنا أي قوة، فمن السهل أن يمثل المرء دور المنقذ لهذا الشعب الذي اعتاد المعاناة، لا يرحم نفسه، سريع في اتخاذ القرارات، ويعرف الموت جيدًا، ويعيش دومًا فيما يبدو خائفًا في مناخ من التهور، وعلاوة على ذلك، فهو خصب بقدر ما هو جريء – ومن السهل، كما أقول، أن تلعب لاحقًا دور المنقذ لهذا الشعب الذي أنقذ نفسه على نحو أو آخر، وسواء كان ذلك حتى وإن تطلب هذا ضحايا، تلك التي يتجمد دم المؤرخ حيالها - ونحن عامةً نتجاهل المؤرخين تمامًا.

ومع ذلك، فمن الصحيح أننا في أوقات الحاجة نستمع أفضل من المعتاد لصوت جوزفين.

والتهديدات التي تواجهنا تجعلنا أكثر هدوءًا وأكثر تواضعًا وأكثر انصياعًا لأمر جوزفين؛ فنحن نحب أن نجتمع معًا، نحب أن نتزاحم معًا، خاصةً لأن هذا يحدث في مناسبة بعيدة تمامًا عن الوضع المعذب الأساسي. فيبدو الأمر كما لو كنا سنشرب بسرعة قدحًا كنخب السلام قبل القتال- نعم، هناك حاجة للإسراع وهذا ما تنساه جوزفين في كثير من الأحيان.

ويكون هذا ليس عرضًا غنائيًا بل هو بالأحرى تجمع شعبي، هو تجمع صامت تمامًا إلا من صفير خفيض يصدر في الأمام؛ فهذه ساعة أخطر مما يزعم البعض. إن مثل هذه العلاقة لا يمكن بالطبع أن ترضي جوزفين على الإطلاق.

ورغم كل التوتر الذي يعتري جوزفين بسبب موقفها الذي لم يتضح بشكل كامل،

إلا أنها لا ترى بعض الأمور، بعد أن أعمتها ثقتها بنفسها، مما جعلها تتغاضى عن الكثير دون بذل مجهود كبير، بل إنها تتجاهل سربًا من المنافقين بهذا المعنى، ولذلك فهى نشطة عامة لتستفيد دومًا – على نحو ثانوي ودون أن يلحظها أحد، فتغني بركن ما لتجمع شعبي، لأنها يقينًا لن تضحي بغنائها، رغم أن ذلك لن يكون قليلًا في ذاته.

لكنها ليست مضطرة إلى ذلك لأن فنها لن يمر مرور الكرام. رغم حقيقة أننا منشغولون بشكل أساسي بأمور مختلفة تمامًا وأن الصمت لا يخيم فقط بسبب الغناء، فالبعض لا يتابعونها، بل يفركون وجوههم في فرو الجيران أثناء ما تكافح جوزفين هناك عبثًا، لكن الأمر الذي لا يمكن إنكاره – هو أن شيئًا من صفيرها ينفد إلينا لا محالة.

هذا الصفير الذي يرتفع حيث يُفرض الصمت على كل الآخرين، يكاد يكون كرسالة من الشعب إلى الفرد؛ إن صفير جوزفين الرقيق في خضم القرارات الصعبة يشبه تقريبًا الوجود البائس لشعبنا في خضم اضطراب العالم المعادي، فمن المستحسن التفكير في الأمر.

في مثل هذه الأوقات، لن نكون يقينًا قادرين على تحمل فنان مغنٍ حقيقي، إن وجد بيننا، وسنرفض بالإجماع عبثية مثل هذه العروض. وقد تكون جوزفين بمنأى عن إدراك حقيقة أن استماعنا إليها ما هو إلا دليل ضد غنائها. إنها على دراية بهذا، وإلا فلماذا تنكر بإلحاح أننا نستمع إليها، رغم مواصلتها للغناء متجاهلة هذا الهاجس.

ولكن لا يزال هناك بعض العزاء لها من نواحٍ أخرى، فنحن نستمع إليها في الواقع إلى حد ما، على الأرجح فيما يشبه نفس الطريقة التي يستمع بها المرء إلى فنان يغني، فهي تحقق تأثيرًا يجاهد المطربون عبثًا لتحقيقه لنا وهو ما تحرزه هي رغم قدرتها القاصرة.

إن هذا يرتبط بشكل أساسي بأسلوب حياتنا. فليس هناك فرد من شعبنا يعرف مرحلة الشباب ولا قليلًا من مرحلة الطفولة. فمن المؤكد أن متطلبات ما تطرأ على نحو منتظم. فالمرء يطمح إلى ضمان حرية خاصة للأطفال وحماية خاصة وحقهم في قليل من عدم تحمل المسؤولية، وقليل من مرح عفوي، والقليل من اللعب، ويجب

الاعتراف بهذا الحق ومساعدتهم على الوفاء به؛ مثل هذه الاحتياجات تظهر ويوافق عليها الجميع تقريبًا، وليس هناك ما يستدعي توافقًا أكثر من هذا، ولكن لا يوجد أيضًا أي شيء في واقع حياتنا يمكن أن نعترف به أقل من هذا، فنحن نقر بالمطالب وتجري محاولات لتحقيقها، ولكن سرعان ما يعود كل شيء إلى سابق عهده.

إن حياتنا تجري على هذا النحو، فما أن يبدأ الطفل في السعي، ويصير بوسعه تمييز القليل مما يحيط به، يكون عليه أن يعتني بنفسه تمامًا مثل الكبار؛ فالمناطق التي نعيش فيها متفرقين لأسباب اقتصادية كبيرة وأعداؤنا كثيرون، والأخطار الموجودة في كل مكان بالنسبة لنا لا يمكن التنبؤ بها - فلا يمكننا إبعاد الأطفال عن الكفاح من أجل الوجود، فإن لم نفعل ذلك فستكون نهايتهم قبل أوانها.

بالإضافة إلى هذه الأسباب المحزنة، هناك بالطبع سبب مهم، هو خصوبة قبيلتنا- وكل جيل منها كثير العدد - فجيل يدفع الآخر، فلا يتوفر لدى الأطفال وقت ليكونوا أطفالًا. وقد ينعم أطفال الشعوب الأخرى بعناية، قد يتم بناء مدارس هناك للصغار، قد يتدفق الأطفال من هذه المدارس يوميًا، فهم مستقبل الشعب، لهذا يظل أولئك لفترة طويلة دائمًا ويومًا بعد يوم، هم نفس الأطفال هناك.

أما نحن فليس لدينا مدارس، ولكن من شعبنا تتدفق جموع من أطفالنا في أقصر فترات زمنية ممكنة، فأطفالنا يأزون أو يصدرون صريرًا طالما لم يكن بوسعهم الصفير بعد أو هم يزحفون بلا حول فيواصلون التدحرج طالما أنهم لا يستطيعون المشي بعد، فيجتاحون كل ما أمامهم على نحو أخرق طالما أنهم لا يستطيعون الرؤية بعد.

وليس نفس الأطفال كما هو الحال في تلك المدارس، كلّا، فدائمًا فهناك دائمًا أطفال جدد بلا نهاية، بدون انقطاع، فما أن يظهر طفل، لم يعد طفلًا، فخلفه تتدافع وجوه أطفال جدد، لا يمكن تمييزها في جموعهم وتسارعهم، وقد توردت وجوههم من السعادة.

وبالطبع، فمهما كان هذا جميلًا وهو ما قد يحسدنا الآخرون عليه، فإنه لا يمكننا أن نمنح أبناءنا طفولة حقيقية.

وهذا له تداعياته، لأن طفولة معينة أبدية لا يمكن القضاء عليها هي التي تسكن وجدان شعبنا؛ ففي تناقض مباشر مع أفضل ما لدينا، نتصرف نحن أحيانًا طبقًا للمفهوم العملي الواضح بحماقة تامة، وهي الطريقة التي يتصرف بها الأطفال بحماقة، بلا عقل، بسفاهة، بكرم، بتهور، ويكون كل هذا غالبًا من أجل مزحة صغيرة.

فإذا لم يكن فرحنا بذلك بالقوة الكاملة لفرح الأطفال بالطبع، فسيظل شيء من هذا يقينًا حيًا فينا.

ولطالما استفادت جوزفين من هذه الطبيعة الطفولية لشعبنا، لكن شعبنا ليس مجرد أطفال، بل هو أيضًا إلى حدٍ ما يعيش شيخوخة مبكرة، فالطفولة والشيخوخة تختلف بالنسبة لنا عن الآخرين.

ليس لدينا شباب، فنحن نكبر في الحال، ومن ثم نظل كبارًا لفترة طويلة، ولذا يغلب تعب بعينهِ ويأس بأثر عميق على وجه العموم، على طبيعة شعبنا الصلبة العنيفة المفعمة بالأمل.

وربما ارتبط افتقارنا للموسيقى بهذا؛ فنحن هرمنا بالنسبة للموسيقى وحماستها، ازدهارها لا يتناسب مع أعبائنا، فلا نستطيع إلا أن نلوح لها من بعيد. ولقد انطوينا على الصفير. صفير بسيط من حين لآخر، وهذا هو ما يناسبنا. ومن يدري إذا كان بيننا مواهب موسيقية.

لكن إذا كانت موجودة، فسيتعين على شخصية الرفاق الوطنيين قمعهم قبل أن يتمكنوا من تطوير قدرتهم.

من ناحية أخرى، قد تصفر جوزفين أو تغني كيفما شاءت، أو كيفما تسميه هي، فهذا أمر لا يزعجنا، وهو يناسبنا ويمكننا تحمله. فإن كان في هذا يكمن شيء من الموسيقى، فسوف يتم اختزاله إلى أكبر قدر ممكن من البطلان، ليتم الحفاظ على موروث موسيقي معين، ولكن دون أن يثقل علينا بأقل قدر. لكن جوزفين تعطي المزيد لهذا الشعب صاحب المزاج.

في حفلاتها الموسيقية - خاصة في الأوقات الصعبة - يكون صغار الشباب هم من

يهتمون بمغنية على هذا النحو، هم فقط من يشاهدونها بإعجاب وهي تلوي شفتها، والهواء ينطلق من بين أسنانها اللطيفة، وهي تموت في إعجابها بأصوات تصدرها، وتستغل هذا في تشجيع نفسها على إنجاز غير مفهوم، لكن الجمهور الفعلي يكون قد تراجع منطويًا على نفسه وهو أمر يمكن رؤيته بوضوح.

هنا.. أثناء فترات التوقف الضئيلة بين جولات الكفاح، يحلم الشعب كأن أطراف كل فرد تسترخي، وبأن من لا يهدأ سيتمدد كما يشاء لمرة واحدة في سرير الشعب الواسع الدافئ.

وفي هذه الأحلام يرن صفير جوزفين من حين لآخر؛ تسميه هي ماسيًا، ونسميه نحن صادمًا، لكنه سيكون على أية حال هنا في موضعه الذي لا يماثله أي موضع آخر، كما لم تصادف الموسيقى تلك اللحظة التي كانت تنتظرها.

فهناك شيء من طفولة قصيرة بائسة، شيء من سعادة ضائعة لا يمكن العثور عليها أبدًا، ولكن بها أيضًا شيئًا من حياة نشطة اليوم، من بهجتها البسيطة غير المفهومة التي ما زالت موجودة ولايمكن قهرها.

ولا يحدث هذا في الواقع عبر نبرات قوية وإنما عبر نبرة بسيطة، هامسة، حميمة، بل وأحيانًا مبحوحة.

إنه بالطبع صفير، وكيف لا؟ فالصفير هو لغة شعبنا، فقط البعض يصفر طوال حياته وهو لا يدري، ولكن هنا يكون الصفير متحررًا من قيود الحياة اليومية وهو يحررنا أيضًا لبرهة من الزمن، ونحن يقينًا لا نريد افتقاد هذه العروض.

ولكن لا يزال هناك طريق طويل لنقطعه من هنا لنصل إلى زعم جوزفين بأنها، في مثل هذه الأوقات تمنحنا قوة جديدة وما إلى ذلك. وهو ما يعتبره أناس عاديون وليس من ينافقون جوزفين. فـ«كيف يمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك» - يقولون هذا بجرأة سافرة إلى حد ما - «كيف يمكن للمرء أن يفسر على نحو مختلف هذا التدفق الكبير، خاصة في ظل خطر وشيك، وهو ما أعاق أحيانًا الدفاع المناسب في الوقت المناسب ضد هذا الخطر تحديدًا».

حسنًا، هذا الأخير صحيح للأسف، لكنه لا يعد من أسباب شهرة جوزفين، خاصة إذا أضاف أحدهم أنه إذا قام العدو بتفريق مثل هذه التجمعات على غير المتوقع وكان على الكثيرين منا أن يفقدوا حياتهم، فإن اللوم سوف يوجه إلى جوزفين، نعم.. فربما كان صفيرها هو ما أغوى العدو الذي كان دائمًا في نطاق المكان الأكثر أمنًا، وتحت حماية جمهورها، وكان أول من اختفى بهدوء شديد وعلى عجل.

لكن الجميع يعرف هذا أيضًا، ومع ذلك يهرعون مرة أخرى عندما تصعد جوزفين لتغني في مكان ما، في زمان ما، كما تشاء.

انطلاقًا من هنا يمكن للمرء أن يستنتج أن جوزفين فوق القانون تقريبًا، وأنها تستطيع أن تفعل ما تريد حتى لو كان ذلك يعرض الكل للخطر، وأن كل شيء يغفر لها.

فإذا كان الأمر كذلك، فإن ادعاءات جوزفين ستكون مفهومة تمامًا أيضًا، نعم.. يمكن للمرء أن يرى إلى حد ما في هذه الحرية التي سيمنحها لها الشعب، بهذه الهدية غير العادية التي لم تمنح لأحد والتي تدحض القوانين في الواقع، يكمن اعتراف الناس بمزاعم جوزفين بأن الشعب لا يفهمها، ويعجب بلا حول ولا قوة بفنها، ويشعر بأنه لا يستحقها، ويسعى جاهدًا لتعويض جوزفين عما يؤلمها، فكما هو لا يستوعب فنها، لا يكون بوسعه استيعاب شخصها وآمالها.

حسنًا، هذا ليس صحيحًا بأي حال من الأحوال، فقد يستسلم الناس في الحالات الفردية لجوزفين بسرعة كبيرة، ولكن بنفس قدر استسلامهم دون قيد أو شرط لأي شخص، بما في ذلك هي. فقد كانت جوزفين لفترة طويلة، منذ بداية حياتها المهنية كفنانة تكافح من أجل تحريرنفسها من جميع الأعمال من أجل الغناء، لذلك ينبغي أن يرفع عن كاهلها عبء تدبير الخبز اليومي وكل متطلبات الحياة ليتحمله - ربما - الشعب ككل.

فيمكن لمتحمس سريع - فهناك بعض هؤلاء- أن يستنتج من غرابة هذا المطلب فقط، ما يتوافق مع حالته الذهنية القادرة على تصور مثل هذا المطلب، لكن شعبنا يتوصل إلى استنتاج مختلف فيرفض المطلب بهدوء، كما أنه لا يجهد نفسه لدحض

أسباب الطلب.

فجوزفين تشير - على سبيل المثال - إلى أن الجهد المبذول في العمل يضر بصوتها، وعلى الرغم من أن الجهد المبذول في العمل قليل مقارنة بجهد الغناء، إلا أن العمل لا يسمح لها بالراحة الكافية بعد الغناء من أجل الاستعداد لغناء جديد. فمهما أرهقت نفسها في سبيل ذلك فلن يتيسر لها الوصول إلى أقصى أداء لها في ظل هذه الظروف، ويستمع الشعب لها ويتجاهلها.

إن هؤلاء الذين يتأثرون بسهولة لا يمكن أن يتحركوا في بعض الأحيان، ويكون الرفض أحيانًا صعبًا إلى حد أن جوزفين تفزع فتنصاع لتمارس عملًا كما ينبغي، وتغني بقدر ما تستطيع، لكنها تفعل كل هذا لفترة قصيرة لتعود لخوض المعركة بقوة جديدة – وفي هذا يبدو أن كثيرين يؤيدونها بلا حدود - مرة أخرى. ويتضح حينئذ أن جوزفين لا تسعى جاهدة لتحقيق ما تهدف إليه حرفيًا.

إنها عاقلة، لا تخشى العمل، تلك الخشية التي لا نعرفها إطلاقًا، حتى لو نالت الاستحسان فيما تسعى إليه، فحياتها يقينًا لن تختلف عن السابق، فالعمل لا يحول بينها وبين الغناء، ويقينًا لن يصبح الغناء أيضًا أكثر جمالًا - فما تسعى إليه فقط هو الاعتراف العام بفنها، اعترافًا لا لبس فيه، يدوم طويلًا متجاوزًا كل ما هو معروف سابقًا.

وبينما يبدو لها أنه حققت كل شيء، تكون قد فشلت في التمسك بعنادها.

ربما كان ينبغي عليها توجيه الهجوم إلى الاتجاه الآخر منذ البداية، وربما ترى الآن الخطأ بنفسها، لكنها لم تعد قادرة على التراجع، فإن العودة إلى الوراء تعني عدم إخلاصها لنفسها، والآن عليها أن تتقدم أو تسقط مع هذا المطلب.

فإن كان لديها أعداء، كما تقول فإنه يمكن لأولئك أن يتسلوا بمشاهدة هذا الصراع دون أن يحركوا ساكنًا.

لكنها ليس لها أعداء، وحتى لو كان هناك من يعارضها من حين لآخر، فإن هذه المعركة لا تروق لأحد.

لهذا لن يكون الأمر كذلك لأن الناس هنا يتمسكون بموقفهم الحاسم البارد، وهو الأمر الذي يراه المرء نادرًا في بلدنا. وحتى لو وافق شخص ما على هذا الموقف في هذه الحالة، فإن مجرد فكرة أن الناس يومًا ما قد يتصرفون بالمثل تجاه هذا الشخص تقضي على أية فرحة.

ويدور الأمر أيضًا في حالة الرفض، كما يدور حول المطلب، فالأمر لا يتعلق بالمسألة نفسها، بل يتعلق بحقيقة أن الشعب يمكن أن ينغلق على نفسه تجاه أحد الرفاق على نحو لا يمكن اختراقه، ويكون غير قابل للاختراق على نحو أعظم من حرص الشعب على رعاية هذا الرفيق على نحو أبوي.

فإذا ما صار هناك فرد واحد هنا بديلًا عن الشعب، فإنه يمكن للمرء أن يعتقد أن هذا الفرد قد استسلم لجوزفين طوال الوقت مدفوعًا بالرغبة الشديدة المستمرة في وضع نهاية للاستسلام، وكان استسلامه متجاوزًا لقدرة البشر وبعد أن وقر في يقينه أن هذا الاستسلام سيصل إلى حدوده الصحيحة. نعم، لقد أعطى أكثر مما كان ضروريًا، فقط لتسريع الأمور، فقط لتدليل جوزفين وجعلها تريد المزيد والمزيد، حتى قدمت هذا المطلب الأخير حقًا؛ هنا يكون قد توصل، بالطبع، باختصار إلى الرفض القاطع بعد استعداد طويل الأمد.

حسنًا، فالحال هنا مختلف بالتأكيد، فالشعب لا يحتاج إلى مثل هذه الحيل، إضافة إلى أن تبجيلهم لجوزفين صادق ومُجرب، ومن المؤكد أن مطلب جوزفين قوي إلى حد أن أي طفل بريء يمكن أن يتنبأ لها بالنتيجة.

ومع ذلك قد تكون وجهة نظر جوزفين في الأمر تتضمن أيضًا مثل هذه الافتراضات وتضيف مرارة لألم أولئك الذين تم رفضهم، ولكن حتى لو كانت لديها مثل هذه الافتراضات، فلن تتراجع عن الكفاح.

في الآونة الأخيرة اشتد الكفاح، فإن كانت تقود الكفاح حتى الآن بالكلام فقط، فقد بدأت الآن في استخدام وسائل أخرى رأتها أكثر فاعلية وكانت في رأينا أكثر خطورة عليها هي نفسها.

يعتقد البعض أن هذا هو السبب في أن جوزفين تصير أكثر إلحاحًا لشعورها بأنها قد تقدمت في السن، واعترى الضعف صوتها، ولذا فقد حان وقت خوضها المعركة النهائية من أجل الاعتراف بها.

إني لا أؤمن بذلك، فجوزفين لن تكون جوزفين إذا جد الجد، فهي لا تعتد بشيخوخة ولا ضعف صوتها. عندما تطلب شيئًا ما، فإنها لا تحققه بعوامل خارجية، بل من خلال اتساقها الداخلي مع نفسها.

إنها تصل إلى قمة الإكليل، ليس لأنه في متناول يدها، ولكن لأنه الأعلى. وإذا ما تيسر الأمر لها لكانت علقته أعلى من ذلك، إلا أن تجاهلها للصعوبات الخارجية لا يمنعها من استخدام الوسائل الأقل قيمة.

وحقها لا شك فيه، فالذي يهم هو كيف تحقق ذلك؟ خاصة أنه في هذا العالم كما نعرفه، فإن الوسائل الشريفة تحديدًا تفشل حتمًا. وربما لهذا السبب حولت كفاحها من أجل حقوقها من مجال الأغنية إلى مجال آخر أقل كلفة بالنسبة لها.

ولقد تداول أنصارها تصريحات لها توحي بأنها قادرة تمامًا على الغناء بطريقة تجعلها متعة حقيقية للناس على اختلاف طبقاتهم، حتى بين معارضيها الأكثر تواريًا، متعة حقيقية، متعة ليس كما يفهمها الناس الذين يدعون أنهم شعروا بهذه المتعة في غناء جوزفين منذ البداية، ولكن المتعة بمعنى يتسق مع رغبة جوزفين.

لكن، إن هي أضافت بما أنها لا تستطيع تزوير ما هو عالٍ ولا يمكنها أن تنافق ما هو وضيع، فعليها أن تبقى فقط كما هي.

لكن الأمر يختلف في كفاحها من أجل حرية العمل، وهو كفاح أيضًا من أجل غنائها، لكنها هنا لا تقاتل مباشرة بسلاح الغناء الثمين، بل تعتبر كل وسيلة تستخدمها صالحة بما فيه الكفاية.

وهكذا انتشرت على سبيل المثال الشائعات بأنه إذا لم يتم الاستسلام لجوزفين، فإنها تنوي اختصار الأغاني الخفيفة. وأنا لا أعرف أي شيء عن أغان خفيفة، ولم ألحظ قط أنها تؤدي أغان خفيفة. ومع ذلك فإن جوزفين تسعى إلى اختصار الأغاني

الخفيفة، وليس محوها في الوقت الحالي بل اختصارها فقط.

وفيما يبدو أنها وضعت تهديدها موضع النفاذ، لكنني لم ألاحظ أي اختلاف عن أدائها السابق. استمع الناس ككل، كما كان الحال دائمًا دون التعليق على الأغاني الخفيفة، ولم تتغير معالجة طلب جوزفين أيضًا. وعامةً، فإنه لا يمكن إنكار أن جوزفين رشيقة القوام هي رشيقة الأفكار كذلك.

فقد أعلنت بعد هذا العرض، على سبيل المثال، أنها ستغني قريبًا الأغاني الخفيفة كاملة مرة أخرى كما لو أن قرارها بشأن اختصار الأغاني الخفيفة كان صعبًا جدًا على الشعب أو مفاجئًا جدًا له.

ولكن بعد الحفلة الموسيقية التالية، فكرت في الأمر بشكل مختلف، فالآن انتهى أمر الأغاني الخفيفة الطويلة أخيرًا ولن تتراجع عن القرار الذي كان في صالح جوزفين.

حسنًا، تجاهل الناس كل هذه التصريحات والقرارات والتغييرات في القرار، مثلما يتجاهل شخص بالغ حديث طفل. إلا أن جوزفين لا تستسلم. فعلى سبيل المثال، زعمت مؤخرًا أنها تعرضت لإصابة في قدمها أثناء العمل جعلت من الصعب عليها الوقوف أثناء الغناء، وبما أنها لا تستطيع الغناء إلا واقفة، فعليها الآن اختصار الأغاني.

ورغم أنها كانت تعرج وتعتمد على ذراع أنصارها، إلا أن أحدًا لم يصدق بإصابتها حقًا. ورغم حساسية جسدها الصغير، باعتراف الجميع، فإننا شعب عامل وجوزفين واحدة منا، ولكن إذا أردنا أن نعرج بسبب كل خدش، فلن يتوقف الناس عن العرج.

لكنها قد تسمح لنفسها بأن تُقاد كسيدة عرجاء، وقد تظهر في كثير من الأحيان أكثر من المعتاد في هذه الحالة المؤسفة، فالناس يسمعونها تغني بامتنان وسعادة كما كانوا يفعلون من قبل، ولكنهم لا يعلنون استياءهم تجاه اختصار الأغاني. ونظرًا لأنها لا تستطيع أن تعرج دائمًا، فإنها اخترعت شيئًا آخر، فصارت تتظاهر بالتعب وكدر المزاج والضعف.

لقد صار لدينا الآن مسرحية إضافة إلى الحفلة الموسيقية، وصرنا نرى الأنصار وراء جوزفين وهم يرجونها ويحثونها على الغناء. وقد شاءت هي ذلك، لكنها لم تستطع، فصار الناس يواسونها ويلاطفونها بل ويحملونها تقريبًا إلى المكان المختار مسبقًا حيث من المفترض أن تغني.

أخيرًا استسلمت بدموع لا يمكن تفسيرها، لكنها شاءت الغناء بإرادة نهائية على ما يبدو وهي مرهقة، ولا تفرد ذراعها كالمعتاد ولكن تدعها تتدلى بلا حياة إلى جانبها مما يعطي الانطباع بأنها ربما تكون قصيرة بعض الشيء- وهو انسجام كانت تسعى إليه، والآن وقع طارئ آخر، فقد أبدت انتفاضة لا إرادية برأسها لتنهار أمام أعيننا.

ثم كان أن تماسكت ثانيةً وأخذت تغني، وعلى ما أعتقد لم يختلف الأمر كثيرًا عن المعتاد، فربما إذا كان لدى المرء أذن مرهفة لاستطاع ملاحظة بعض الانفعال غير المعتاد في صوتها، وهو ما وافق حالها.

وفي النهاية، أصبحت أقل تعبًا عن ذي قبل، وصارت تمضى بخطى ثابتة، بقدر جعلنا نطلق على ذلك هرولة مسرعة، وابتعدت رافضة أي مساعدة من أنصارها وهي تتفحص بنظرة باردة الجمهور المراوغ بوقار. هكذا كانت في الآونة الأخيرة، لكن آخر ما حدث أنها اختفت في وقت كان الناس ينتظرون غناءها.

ولم يكن أنصارها هم الذين يبحثون عنها، فكثيرون وضعوا أنفسهم في خدمة البحث عنها بلا جدوى؛ فقد اختفت جوزفين، وهي لا تريد الغناء، ولا تريد حتى أن يُطلب منها ذلك، هذه المرة غادرتنا تمامًا.

من الغريب أن هذه الذكية أخطأت الحساب أخطأت إلى حد أنه يجب على المرء أن يعتقد أنها لا تحسب على الإطلاق، ولكنها كانت مدفوعة فقط بمصيرها، الذي يمكن أن يكون حزينًا للغاية في عالمنا. إنها مَن قررت اعتزال الغناء، وهي من تدمر سطوتها على الوجدان التي اكتسبتها بنفسها.

كيف استطاعت أن تكتسب هذه القوة وهي لا تعرف إلا القليل عن وجدان الناس. إنها تختبئ ولا تغني؛ لكن الشعب، شعب هادئ، خيبة أمله غير مرئية، متسلط، هو

جمهور يتمتع بالسكينة، هذا الشعب يمكنه فقط تقديم الهدايا، حتى لو كان الظاهر يناقض هذا، وهو لا يتلقاها أبدًا، ولا حتى من جوزفين، هذا الشعب يواصل مسيره، ولكنه ينحدر مع جوزفين.

وقريبًا سيحين أجلها ليتوقف صفيرها وتصمت. إنها حقبة قصيرة في التاريخ الأبدي لشعبنا وسيتغلب الناس على الخسارة، لن يكون الأمر سهلًا بالنسبة لنا، كيف سيكون تجمعنا ممكنًا في صمت تام؟ بالطبع، ألم نصمت مع جوزفين أيضًا؟.

هل كان صفيرها الحقيقي أعلى بشكل ملحوظ وأكثر حيوية مما ستكون عليه الذاكرة؟ هل كان هذا أكثر من مجرد ذكرى طيلة حياتها؟ أليس بالأحرى أن الشعب الحكيم قد رفع غناء جوزفين إلى مرتبة عالية، لأنه كان من المستحيل أن يخسره إن لم يرتفع به إلى هذه المرتبة؟.

وهكذا ربما لن نخسر كثيرًا، لكن جوزفين التي خلصت من الابتلاء الأرضي الذي هو في رأيها يتسع للمصطفين، سوف تخسر نفسها بسعادة ضمن العدد الهائل من أبطال شعبنا، ولأننا لا نهتم بصناعة التاريخ فسرعان ما تصير منذ هذا الحين نسيًا منسيًا بخلاص عظيم مثل كل إخوتها.

***

Telegram:@mbooks90

---

(1)- سارينا (سارينات) أسطورة يونانية عن كائن نصفه امرأة ونصفه طائر أو سمكة وهي تغوي البحارة بغنائها فينجذبون إليها وهي تماثل الجنية النداهة في تراثنا الشعبي، المترجم.

(2)- بوشمان مصطلح يطلق على أفراد شعب يعيش في ناميبيا وبيتسوانا وأنجولا، المترجم

(3)- شاطئ بحيرة بزيورخ في سويسرا/ المترجم

(4)- نوع من الغربان بمنقار طويل حاد وكذلك بذيل طويل، شرس الطباع وهو أكثر الطيور إيذاء واشتهر بالسرقة ويقال: شخص عقعق أي كثير الثرثرة/ المترجم.